

النسق القرآني ومشروع الإنسان

(قراءة قيمية راشدة)



د. جاسم سلطان



مركز الوجدان الحضاري
WIJDAN CULTURAL CENTER



الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

النسق القرآني مشروع الإنسان

(قراءة قيمية راشدة)

د. جاسم سلطان

مركز الوجدان الحضاري
WIJDAN CULTURAL CENTER



الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING



الفهرسة أثناء النشر - إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر

سلطان، جاسم
النسق القرآني ومشروع الإنسان:
قراءة قيمة راشدة/ جاسم سلطان.
؟؟؟ص.

ISBN 978-614-431-164-6

١. الإسلام وقيم الدين. أ. العنوان.

297

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر الشبكة العربية للأبحاث والنشر»

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للشبكة

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٨

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت - المكتب الرئيسي:

رأس بيروت، المنارة،

شارع نجيب العرداتي

ص.ب: ٥٢٨٥ - ١١٣ حمرا - بيروت

١١٠٣٢٠٣٠ - لبنان

هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧

محمول: ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧

E-mail: info@arabianetwork.com

بيروت - مكتبة

السوليدير، مقابل برج الغزال،

بناية المركز العربي

هاتف: ٠٠٩٦١١٩٩١٨٤١

القاهرة - مكتبة

وسط البلد، ٢٢ شارع عبد الخالق ثروت

هاتف: ٠٠٢٠٢٢٣٩٥٠٨٣٥

الاسكندرية - مكتبة

عمارة الضرات،

٢٤ شارع عبد السلام عارف

هاتف: ٠٠٢٠١٢٠٥٢٨٩٦٨٥

الدار البيضاء - مكتبة

٢٨ زنقة روما، تقاطع شارع

مولاي إدريس الأول

هاتف: ٠٠٢١٢٥٢٢٨٠٦٨٨٧

تونس - مكتبة

١٠ نهج تانيت، نوتردام،

قبالة وزارة الخارجية

هاتف: ٠٠٢١٦٥٠٨٣٠٥٥٤

اسطنبول - مكتبة

حي الفاتح، شارع الخرقه الشريفة،

المتفرع من شارع فوزي باشا

هاتف: ٠٠٩٠٥٥٣٦٩٥٣٤٧٧

المحتويات

.....	مقدمة
.....	تمهيد
.....	الفصل الأول: قصة الخلق
.....	منزلة الإنسان في الوجود
.....	الفصل الثاني: فاتحة الكتاب
.....	مهمة الإنسان في الوجود
.....	الفصل الثالث: الأبعاد الثلاثة
.....	الإيمان، الصلاة، الإنفاق
.....	الفصل الرابع: متطلبات العمران
.....	العمل الصالح ونماذجه
.....	الفصل الخامس: النسق الكلي للعيش البشري
.....	قيم العيش المشترك
.....	الفصل السادس: نموذج الدوائر الثلاث
.....	العقائد، التقارير العامة، الحقوق
.....	خاتمة

مقدمة

التروس الصغيرة في الساعة لا تسمى ساعة، وهي تكتسب معناها في نظام الساعة لا خارجه، ولا معنى للجزء من دون سياقه الكلي.

نعمتان يُساء استخدامهما: العقل والدين؛ فالبعض يستخدمهما ليزداد سمواً، والبعض الآخر ليتحلل من مقررات الأخلاق. العيب ليس في الأداتين، لكن في غلبة الشهوات على الإنسان؛ إذ يستطيع الإنسان تسويق انحلاله من عري الأخلاق بأي منهما؛ ففي فضاء العقل متسع، وفي الحيل الدينية متسع، وفي كل الأحوال هي تعبير عن غلبة الشهوات.

الشهوات ليست بالضرورة - كما يتبادر للعقل - شهوة البطن والفرج فقط، وإنما هناك ما هو أخطر: كشهوة التسلط والتجبر، والمال، والمنصب، والظلم، والانتقام، والحسد، والكراهية، والاستعلاء؛ وفي تلك الحالات كلها ينحرف القلب عن الصراط وتضيع البوصلة.

إن الضلال قد يأتي بسوء المنهج وطرائق التفكير، وقد يأتي

بسوء الطوية وانحراف القلب؛ فالشرق اتبع آباءه وسادته فضلً وأضل، والغرب اتبع سادته وكبراءه فضلً وأضل أيضاً؛ لذلك وصّفنا الغرب في قرونه الوسطى بالظلام، وكذلك الجاهلية قبل الإسلام، وفي كلتا الحالتين كان منهج الفكر والتلقي مختلفاً في مسلماته ونتائجه، فأورث جهالة استمرت مئات السنين. وانحراف القلب كثيراً ما كان سبباً في إضلال الأفراد والجماعات، وسبباً في ابتعادهم عن قبول الحق بعدما استبان لهم؛ لذلك يعتبر فساد المنهج وفساد القلب آفة الآفات في كل عصر، واختلالهما طريق الهوان الإنساني. والحل يكمن في مسألة الوعي بالاتجاه الفكري، والفهم السوي لغايات الدين السامية، ممهدة بذلك لوعي ذاتي لمطلب الدين نحو التسامي الإنساني، ووجود الصورة الكلية التي سنحاول أن نرسمها في هذا البحث كمحاولة لضبط المسار.

كل ما سنذكره في الكتاب هو محاولة لفهم الدين، تقابلها محاولات ذات طابع فقهي، فلسفي، صوفي، أو سلفي، يضاف إليها المحاولات التي تؤدّج الدين، وكلها تُنتج أنواعاً مختلفة من التدين؛ لأن النص الذي يغلب عليه الدلالة الظنية سيسمح بهذه القراءات المتعددة. ومن حق جميع المحاولات أن تعرض نفسها على العقل المسلم؛ لأنها جميعاً عبارة عن محاولات سمح بها النص، لكنها ليست الدين نفسه، وليس أي منها هو مراد الله على وجه اليقين.

ما ينبغي الإشارة إليه هو أن على القارئ أن يعرف بأن

النص يُستنتق من خلال المنهج الذي هو نحت بشري، ونحن في مقاربتنا ومنهجنا هنا سنبتعد عن تجزيء القرآن، وذلك عبر دراسته كنسق متكامل يخدم بعضه بعضاً، أو على الأقل هذا ما نزعم أننا سنحاوله.

لقد عنونا هذا الكتاب بـ(النسق القرآني مشروع الإنسان: قراءة قيمية راشدة)، ونقصد به فهم الإسلام من خلال تبیین معالم نسقه القيمي، وجعل هذا الأخير مرجعاً تدرج فيه كل التفصيلات وترجع إليه.

دعوى الكتاب تقوم على أنه حين افتقدنا النظرة لنسق قيم الدين، واختلت مفاهيمه الكبرى، واختلطت دوائر فعل النص؛ فقد الدين فاعليته، وأصبح جزءاً من المشكلة بدلاً من أن يكون جزءاً من الحل؛ إذ إن الاستدعاء الفردي للنصوص من غير النظام الكلي الذي تشتغل عليه النصوص هو سبب أساسي في إشاعة الاضطراب في كل أوجه الحياة داخل البيئة الإسلامية إلى حد التناقض المفضي إلى الهلاك، فما كان صالحاً من بساطة الرؤية في البدايات لم يعد مجدياً في عصر التعقيد والبيئات المفتوحة.

من خلال هذا الكتاب، نطمح إلى أن نطرح رؤية للدين من زاوية النسق القيمي العميق، بحيث تتساند القيم في صناعة التصور دون تشتت تضعيع معه الصورة الكلية. وما أتمناه في بحثي هذا أن يرى القارئ معي قيمة النسق، وأن يجده حرياً بالتبني، بديلاً عن النظرة المجزأة للدين؛ لتختفي تلك

الاستدعاءات المجتزأة، والتي وصفها القرآن بـ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ
 الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، و﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾.
 فالحالة التجزئية أشبه بشخص يشتري قطع السيارة من أصغر
 جزء إلى أكبر جزء بطريقة منفردة، ويعتقد أن لديه سيارة. إن
 الفرق شاسع بين السيارة في كلها المُرَكَّب، وبين أجزائها
 عندما تكون منفصلة؛ فهي لا تسمى سيارة إلا إذا شكلت
 وحدة واحدة، أما أجزاؤها فهي لا تعدو أن تكون أجزاء
 وقِطْعاً. إن استبدال المنظور الشائع والمجزأ بمنظور كلي
 متماسك ليس بالأمر اليسير، لكنه المستقبل، ومن دونه سيكون
 فشل محقق.

في هذا الكتاب سنبحث عن النسق الأكبر الجامع فقط،
 دون استعراض للأنساق الصغرى التي تتظم فيه مثل: نسق الجبر
 والاختيار، والنسق الذي تستدعى فيه سنن الله في الكون
 والأنفس، والنسق الذي تستدعى فيه التزكية وقضية الحرب،
 ونسق قضية المرأة.

لقد تضمّن بحثنا هذا: المقدمة، وتحدث عن السياقات
 العامة لمحتوى الكتاب، ثم أتبعناها بتمهيد عام: حول ماهية
 القيم، والنسق وأهميته، وأثر غيابه في الدين الواقع، ثم بفصل
 أول: يتحدث عن منزلة الإنسان في الوجود، وفصل ثانٍ: تناولنا
 فيه الأمانة التي حملها الإنسان، ليتبعه فصل ثالث: تطرقنا فيه
 إلى بيان الأبعاد الثلاثة الأهم في مشروع الدين، ثم فصل رابع:
 يتمثل في أبعاد العمل الصالح، ثم فصل خامس: ذكرنا فيه نسق

العيش الإنساني المشترك، وأخيراً فصل سادس: حول تداخل
الدوائر الثلاث، وهي: الاعتقاد، والمقررات العامة، والحقوق،
ثم خاتمة.

تمهيد

إن دراسات القيم تأخذ أشكالاً متعددة، مثل: دراسة ما وراء القيم، والقيم المعيارية والوصفية والتطبيقية، ونظم القيم التي منها نظرية الأمر الإلهي. في بحثنا هذا سندرس منظومة القيم الإسلامية من حيث هي نسق أو نظام مركب يعمل في نسق تتكامل أجزاؤه ومفرداته، وهو ما سنحاول أن نشرحه في هذا الكتاب، مبينين خطورة الاستدعاء الجزئي.

القيم هي عناوين ذهنية تكون معياراً للتفضيلات السلوكية، فعندما تتحدد مفردات هذه السلوكيات - بحسب كل ثقافة أو حتى بالنسبة إلى الفرد نفسه - وتتحول إلى قالب مرجعي؛ تكون قد تحولت إلى مفهوم في الذهن: «قيم». وحينما يُقر الإنسان الالتزام بها تتحول إلى مبدأ، عندها تنتقل وتتحول على شكل سلوك خارجي لتصبح خلقاً له. أما الأفكار فهي كل ما يجول في العقل، والمعتقدات هي ما جزم العقل بصحته، سواء بالدليل أو بغيره.

إن المتأمل في القرآن الكريم يجد أنه يركز على محورين

أساسيين للتغيير الاجتماعي، هما: مُرَكَّبَا الإيمان والأخلاق، ويجعل مساحة الأخلاق هي أساس التعبير عن الإيمان.

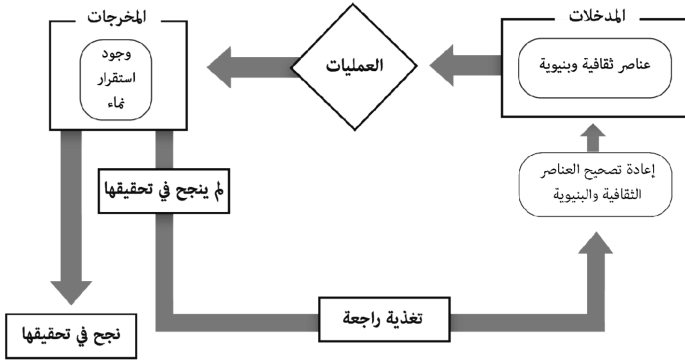
الإيمان هو تصور عقلي مؤثر في الالتزام القيمي، وتغييره هو قرار ينتقل به الإنسان من معتقد إلى آخر. إنها معركة تدور في العقل، كما أنها نقطة البداية لمشروع الدين، وقد أولاهما القرآن عناية كبيرة في سور كثيرة؛ لأن كسب معركة المقدمات الفكرية^(١) هي بداية التغيير الكبرى؛ إذ إن صناعة المجتمعات هي قضية مرتبطة بالقيم، وصراع معقد يومي بين مصالح الإنسان الآنية ومواقفه المبدئية.

إذا كان القرآن نسقاً يوظف البشارة والندارة، والقصص التاريخية والحدث، وفنون اللغة كالإيجاز والاستفاضة بغرض تحريك الإنسان نحو الاستجابة الاختيارية، والإيمان الدافع للصالح والإصلاح؛ فإنه قد شَرَعَ العبادات والطقوس الدينية، لتكون رافعة لتحقيق غايات أسمى في التحول النفسي للمتلقي، وقد عرض أعمال الصالحين، ليُقيم بها نُظم العمران، كما شرع العقوبات ليرسم طريقاً لحماية المجتمع من الظلم والعدوان. إن كيان القرآن الكلي هو إقناع واستدلال متنوع الأساليب، وهو يتحرك نحو تأكيد غاياته الكبرى. على الرغم

(١) هي قليات مفاهيمية تسبق استنتاج الأحكام الفقهية، فمفاهيم مثل: مشيئة الله في جعل البشر مختلفين وتقرير أن كرامتهم الوجودية محفوظة لكونهم بشراً، ينعكس على كل اجتهاد فرعي متعلق بالتعايش والحقوق.

من كل ذلك، إلا أنه يجب أن لا يَحُول دون رؤية النسق
القيمي الحاكم للمنظومة؛ فمن دونه تتجزأ الصورة وتفقد
معناها.

إن معاني كلمة النسق في معاجم اللغة العربية لا تفي
بالغرض المراد هنا؛ فهي تدل على النمط الواحد، أو عطف
الأشياء على بعضها؛ لذلك سأضطر إلى ذكر الكلمة الإنكليزية
المترادفة لبيان الفرق. النسق = System الذي هو: نظام مكون
من أجزاء، وتضبطه آليات تحكم. على سبيل المثال: إذا اعتبرنا
النظام الاجتماعي نسقاً، فسنقول بأنه: مجموعة متساندة من
العناصر الثقافية والبنوية التي تتفاعل، لتؤدي وظيفة حفظ
الوجود والاستقرار والنماء لكل المجتمع. فإذا وُجد أن النظام
الاجتماعي لا يحقق للإنسان تلك المتطلبات فسنجد النظام
يقوم بإعادة ضبط نفسه حتى يحافظ على ذاته. بطريقة أخرى:
هناك مطالب أساسية لعامة البشر المكونين للمجتمع يقومون
بإدخالها على النظام الذي يعيشون فيه، وهذا النظام يقوم
بعملياته لتوفير تلك المتطلبات، وعبر التغذية الراجعة (Feedback)
تكتمل الدورة وتنضبط المعالجة، وحينما يتوقف نظام التحكم
عن العمل ينهار البناء ويتعطل. وهذا ما يحصل عندما تنهار
المجتمعات وتخرج عن حركة التاريخ، بسبب عجزها عن
إصلاح النظام.



(نموذج ١ / النسق - النظام الاجتماعي)

الدين شيء وفهم الدين شيء آخر؛ الأول: هو النص الديني المحفوظ، والثاني: هو التدين الذي قد يكون عرضة لكل أنواع الخلل، فهو تصور عن الدين، قد يقترب أو يبتعد عن مضمونه بقدر جودة منهج استدعاء الدين في حياة الفرد والمجتمع.

حال غالبنا اليوم مأسوي؛ فمع غياب النظرة النسقية لقيم الدين عبر غياب دوائر عمل النصوص، وتقزم المفاهيم، واضطراب السلوكيات؛ نصِفُ الدين بالكمال، ونعتقد أننا نمثله في الواقع، لكن أبسط تصوراتنا عن الدين تنهار عند أول تجربة. بعد كل ذلك لا غرابة أن يكون حال العالم الإسلامي على ما نحن عليه.

إننا نكتشف باستمرار أن مقولاتنا عن الدين وكماله لا تصمد عند التجربة، ونكتشف أن تديننا - فهمنا للدين - هو الذي ينهار؛ فأكبر مقولات القرن المنصرم من قبل الإسلاميين مثلاً

تقوم على فكرة بسيطة، وهي أن وحدة الأمة لا تقوم على القومية ولا الاشتراكية ولا الليبرالية، إنما الإسلام وحده هو القادر على وحدة الكلمة. ولكن في الواقع انهارت كل التجارب التوحيدية بين المسلمين؛ فعلى سبيل المثال: باكستان انفصلت عن الهند، لتصنع وحدة بين المسلمين الهنود، لكنها سرعان ما انفصلت هي الأخرى إلى دولتين إضافيتين، فقامت إلى جوار باكستان دولة أخرى سميت بنغلاديش. وعلى الرغم من ذلك، لم نعتبر، بل استمرت المقولة، وجاءت تجربة الجهاد الأفغاني، والمجاهدون حينها هم أبناء المشروع الإسلامي، ومن أعلى درجات السلم التعليمي، وكان ما كان من تمزقهم واقتتالهم، وعجزوا عن التجمع والاجتماع وقطف ثمار التجربة، بل انفض الناس عن مشروعاتهم من غير دراسة ذات معنى تنفذ إلى السؤال الجوهري (لماذا فشلوا؟). ومن ثم توالى التجارب تباعاً في الجزائر، والسودان، والصومال، وليبيا، وسوريا، ومصر. ولم يُطرح السؤال الحقيقي بعدُ أيضاً: (لماذا فشلوا؟).

لم يكن الأمر بعيداً بهذا القدر حتى يحتاج إلى هذه الرحلة الطويلة كلها، فتلك الحقيقة قائمة من قبل هذه التجارب، فالمجتمعات الإسلامية متخلفة عن العصر بسنوات بعيدة، والإسلاميون أحزاب وجماعات متحاربة، والأحزاب القومية والشيوعية كذلك. والموضوع ليس بالبحث عن الفاشل، بل بطرح الأسئلة الفاعلة: ما هو النسق الذي يحمله هذا الطرف أو ذاك عن الحياة وعن القيم؟ وما درجة اتساقه؟ الكل يُصدر في

بياناته نداء: ﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾، فأى معنى لهذا الاعتصام؟ وما الذي يعطل فاعليته في حياة الأمة؟ وما هي الأمة؟ هل هي بالمعنى السياسي والاجتماعي؟! كيف يمكن قراءة النسق المتكامل في ظل القرآن؟ وهل من الممكن تجسيد الآليات التي جاء بها القرآن وتعاليمه في ظل ما هو مُعاش؟

إذا أقررنا بتلك الأسئلة، فلن نجد عناء في أن نعرف أنها وليدة نسق قيمى مساند، كالتفكر والفهم، والإيمان بنسبية المعرفة، والقدرة على تنظيم المصالح وترتيبها، والقدرة على التفريق بين الاستراتيجي والتكتيكي، والقدرة على التفريق بين التهديد الوجودي والتهديد البسيط، والقدرة على التفريق بين الممكن والمستحيل، والإيمان بالعمل من داخل سنن الله لا من خارجها، وتغليب المصلحة على هوى النفس؛ عندها سنكون مضطرين إلى مراجعة منظوماتنا القيمية التي حكمت تجاربنا، ومراجعة أنساقها لا جزئياتها؛ فالقيم لا تعمل منفردة في فراغ، بل سنجد أن فكرة الاعتصام الموحد تحتاج إلى نسق كامل من القيم المتسائدة، لتتحول إلى حقيقة قائمة، وإلا كانت النتائج في كل مرة هي نفسها.

إن تعلم التفكير في الأنساق ليس أمراً هيناً في بيئات أَلْفَتْ الاستدعاء المجزأ للنصوص الدينية، واختلَّت فيها المفاهيم اختلالاً كبيراً حتى انقلبت للضد؛ فمثلاً لو نظرنا في مفهوم مثل مفهوم الجهاد، الذي وظيفته في المجتمع الإسلامي هي حفظ المجتمع من العدوان الخارجي، وحفظ حق الدعوة وحرية

اختيار البشر، ومن ثم تساءلنا: كيف تحول في تطور تاريخي معين إلى سلاح لقتل الذوات؟ إنه انتقام الأفكار لذاتها؛ فعندما يخون مجتمع ما قيمه ولا يحافظ على مضمونها، ونطاق عملها، والنسق الذي تعمل فيه، تنتقم منه بطريقتها، وتخلق أضدادها، وبمثل هذه الأسباب تنهار كثير من المجتمعات.

الفصل الأول

قصة الخلق

ما هي منزلة الإنسان في الوجود بعيداً عن لونه وعرقه ودينه؟ ما هي مهمته؟ ما الأدوار التي تنتظر منه؟ وما الذي يعترضه؟ إن فهم ذلك كله هو وليد لحظة خلق هذا الإنسان:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَتَّادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ *

فَلَقَّحَ ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَثَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * فَلَنَا أَهْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(١).

الدلالات الكبرى التي تثيرها لحظة البدء:

١ - ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: تصف لنا وضعيّة الإنسان في الأرض، فكل شيء خُلِقَ وهَيَّئَ له.

٢ - ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: هذا المخلوق الجديد سيتعاقب في الأرض.

٣ - ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾: رهانات كبرى بدأت مع لحظة ولادة الإنسان، فهل يستطيع أن يوقف الفساد وسفك الدماء؟

٤ - ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾: ها هو الإنسان في انفتاحه على العلم وقابليته التي ستجعله أهلاً لسكنى الأرض وعمرانها.

٥ - ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾: السجود كان إشعاراً ورمزية لتكريم آدم في الملائكة الأعلى.

٦ - ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾: هكذا اتسع الملائكة الأعلى للمخلوقات المختلفة: ملك طائع، وشيطان مارد، وإنسان بين بين.

(١) القرآن الكريم، «سورة البقرة»، الآيات ٢٩ - ٣٨.

٧ - ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾: عصى آدم ربه مرة فأكل من الشجرة، وتاب الله عليه وأخبره أنه كثير التوبة.

٨ - ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: توحى هذه الآية بأن الإنسان مخلوق خاضع للاختبار.

ها هو الإنسان أمام الامتحان، مزود بقابلية العلم والإرادة التي أهلته للأمر الأول، ومعرض للاختيار الخاطيء، وموعود بالمغفرة المتكررة، له عدو يعرفه، وهو في أرض أعدت له.

الموجهات الكبرى للنسق القيمي الأعلى تتبدى في هذا المخلوق الجديد: «الإنسان»، وهي: الاستخلاف والتسخير: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقبول حمل الأمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] - ومن خلال سياق الآيات سنجد بأن الأمانة هي مسؤولية الإيمان وتبعاته - وقابلية التعلم والزيادة في العلم: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾، معرض للابتلاء بالدنيا، ومطلوب منه أحسن العمل: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وكائن مكرم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وهو كائن مخير: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

ولنرتبها بشكل يسمح برؤية التتابع:

الاستخلاف، التسخير، حمل الأمانة، العلم، الابتلاء

بالدنيا، أحسن العمل، الكرامة الإنسانية، الاختيار. ولنعالجها بشكل يسمح برؤية العلاقات البينية، ومعرفة تبعاتها العملية.

فكرة حمل الأمانة: مربط الفرس في فكرة الدين. والأسئلة التي تطرح هنا: ما طبيعة هذه الأمانة؟ لماذا الإنسان؟ ما طبيعة التحدي الذي يواجهه؟ ما هي الملكات التي زُود بها؟ ما علاقتها بالموضوع؟ ولماذا هو كائن مكرم؟

من الواضح أن الأمانة هي التكاليف المنوطة به من قبل الله ﷻ إيمان، عبادة، إعمار للأرض، وقف لسفك الدماء والفساد. والرواية لا تخبرنا لماذا يريد الله اختيار الإنسان، ولا تخبرنا عن أهمية ذلك الموضوع في خطة الكون، بل تتجه مباشرة لتخبر الإنسان أن هذا الاختبار (الابتلاء) متعلق باختيارات الإنسان الذي أُعطي حق الاختيار، ومطلوب منه أن يقدم أحسن العمل. وهي صيغة تفاعل، بمعنى أن هناك سباقاً في الجودة في الأعمال، وأنه مزود بأهم أداة لتحسين القرارات والأعمال، وهي القدرة على التعلم والارتقاء المعرفي.

في القصة إشارة عميقة لمظاهر التكريم؛ إذ إن الكون صنع على شاكلته، وسُخِّرَ له؛ بمعنى أنه متضمن لفعل الإنسان، تعقلاً وكشفاً وتحكماً، وتلك معالم المشهد الأول.

الحرية:

الإنسان وُجد لغايات معينة وتم توجيهه لها، وخلال إدراكه إياها تستقيم تصوراتهِ وتصلح وجهته، وهي غايات أُسِّست على

تكریم الإنسان بإعطائه (حرية الاختيار) و(مسؤولية المصير)، التي تعتبر شيئاً داخلياً لا يمكن سلبه بالإكراه، فالإكراه الظاهر لا يغير من اختيارات الضمائر: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]؛ لذلك آمن القرآن من اختار الكفر بأنه لن يسلب قدر عمله في الحياة. إنها تجربة الإنسان الذاتية واختياراته التي تصنع مصيره؛ إذ سيعرض على الله فرداً بسبب تلك الحرية المعطاة له، ولن يستطيع أن يعتذر بالجهل بقواعد خطة المصير^(٢). إن المسؤولية الفردية عن القرار هي مسؤولية كبرى! تهتد الجبال، ولا يخفف من وطأتها إلا قواعد الحساب: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ونظراً لأهمية مصطلح الحرية، فقد كانت عليه تأكيدات متكررة في القرآن: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

فحرية الاختيار حق وجودي أصيل، أُعطي للإنسان في أخطر مسائل وجوده وهو الإيمان، فكيف بما دونه من مسائل الحياة؟! ومشروع الدين في حياة الناس ليس شكلياً ظاهرياً، بل هو مشروع غائي لتحقيق مهمة الإنسان في الأرض. وأمثلة هذا

(٢) يقدم الدين رواية كاملة من أول الخلق إلى ميلاد الإنسان إلى وفاته حتى حسابه، ومعها القواعد الكلية التي تضمن له النجاة، مثل: الإيمان والعمل الصالح وما يقود إليه.

الخطاب الغائي في غاية الأهمية. ومن تمثالاته ما يلي:

رؤية الصورة الكبرى: هي نقطة البداية لمشروع الدين في حياة الإنسان. وتركيز العقل في استحضار الوسيلة دون إدراك الغاية والتفكر فيها يعتبر غفلة كبرى عن مراد الله ﷻ. والقرآن كتاب يدق أجراس الخطر للبشرية الغافلة عن المعنى الأكبر للحياة. إنها ليست حياة واحدة، بل أكثر من ذلك: في عالم الذر، وفي الأرحام، وفي الحياة الدنيا، وفي القبر، وبعد البعث.

إن وجود الإنسان مقصود من ذات عليا متصفة بالكمال والجلال لمهام محددة: إعمار الأرض بالعمل الصالح: ﴿ءَامِنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [آل عمران: ٥٧]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، وقف الفساد وسفك الدماء: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، إقامة العدل بين البشر: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، نشر الرحمة في الوجود: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. إن الإنسان مكلف بتلك المهام، ومراقب عليها، ومسؤول عن تحقيقها: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وعبره للنجاة في الآخرة مرهون بالقيام بهذا الدور.

تلك حقيقة كبرى تحتاج إلى وقفة متأنية، لأنها منظور كامل شامل، أداة تفسير يحملها الإنسان لوجوده ككائن عاقل على ظهر البسيطة، وهو ليس معنى مجرداً، بل هو تصور حاكم لكل

حركة للإنسان في الحياة، والناس تبحث عن تفسير لهذا الوجود، والجدل محتدم؛ أهو وجود أحدثته المصادفة العمياء أم تفاعلات كيميائية تمت في بطن التاريخ في لحظة مجهولة، ولسبب مجهول قادت عبر مليارات السنين إلى نشأة الكون، ومنه الأرض، واستمرت بالتطور حتى أصبحت مناسبة لوجود الحياة، فبرزت أولى الكائنات الحية، وبقيت تتطور عبر ملايين السنين حتى ظهر في قمة السلسلة هذا الكائن البشري العاقل؟ لا معنى للوجود إلا ما يعطيه الإنسان لذاته من تفسيرات! هذه التفسيرات تروى وكأنه لم يكن هناك إله مدبر لشؤون الكون. لكن يقابلها تفسير آخر يطرحه الدين، الذي يجعل من الإله علة وجود للكون، الرسل هم المبلغون عنه، والكتب هي مادة الرسالة، فتُحدد للإنسان مهمته ومعنى وجوده ومصيره، وتترتب على هذا الفهم مسؤوليات وواجبات وحقوق.

نجاة الإنسان كما يطرحها القرآن تتحقق في الأرض عبر تحقيق ثلاثة أبعاد مجتمعة: (إيمان، عبادة، إنفاق في الأرض)؛ إيمان بالصورة الكبرى للوجود، صورة تربط عالم الغيب بعالم الشهادة، صورة تربط المحدود - عالم الشهود - بالمطلق - عالم الخلود - وتجعل هذا العالم سبباً لإعمار عالم الشهود. هذا الإيمان ينعكس على فعل الإنسان في الأرض في شكل صلة بالسماء، وقد عبر عنها القرآن بصلاة تروي روحه، تجهزه باستمرار بآلية تذكير وشحن بالمعنى الأكبر للوجود، وبمهمته في الأرض، وترتقي به إلى مقام الذكر الذي يورث التقوى، والتي تقوده إلى الإحسان الأقصى في صناعة الحياة. وذلك هو البعد

الثالث الذي يوظف الإنسان فيه طاقاته، وكل ما رزقه الله من مواهب وقدرات وإمكانات: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. فمن دون ترابط الأبعاد الثلاثة في العقل والفعل يفقد الدين فاعليته.

مهمة الإنسان في الأرض تكون بإعمارها: ﴿وَأَسْتَعْمَرُوا فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وقيم فيها العدل: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، ويبسط فيها الرحمة لكل الموجودات: ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ويوقف الفساد وسفك الدماء: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْطَحِقُونَ﴾ [هود: ١١٧]؛ لذلك الإنسان مزود بملكة العقل والقدرة على التعلم المستمر، وهما سلاحه في الارتقاء من مقام الإفساد وسفك الدماء إلى مقام الإصلاح والبناء: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَتْلَأَدُمْ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣). ومن ثمَّ فحاجة الإنسان إلى

(٣) القرآن الكريم، «سورة البقرة»، الآيات ٣٠ - ٣٣.

العلم ضرورة لوجوده وسلامة الوجود، وزيادته للعلم فيها منفعة له؛ لذلك عليه بطلب الزيادة في العلم: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وليعلم أنه مهما ارتقى في العلم فهو لا يزال على الشاطئ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وأن سقف العلم سباق بين البشر: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وأن كل سوء يحدثه في الكون يقابله جزاء من جنسه: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]؛ فتقصيره في الأخذ بالأسباب يقابله جزاء القصور.

نقطة البدء: في سبيل بلاغ الفكرة وتنفيذها يرسم القرآن خطأ يبدأ بنقطة الإنذار: ﴿وَلْيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، أولى مهام الرسل، والمصلحون على إثرهم: هي جرس الإنذار الذي يوقظ الغافلين، جرس تنبيه لهذا الكائن المتسائل والقلق، الذي يطرح سؤال المعنى دون بقية الكائنات من حوله، تنبيهاً له أن للوجود معنى، ولوجوده معنى أيضاً، فهو كائن يبحث عن الخلود، ويشغله سؤال الموت والفناء، يحتاج إلى معرفة أن وجوده كيان ممتد قبل عالم الشهود وأثناء وبعده؛ إنه وجود مكلف، ووجود مسؤول ومحاسب.

صحة الاستجابة للنذير تحتاج إلى حسن التفكير والعلم والفهم: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ونقاء الضمير: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. وكلما قويت ملكة التفكير زاد العلم وارتقى الفهم.

للتفكير في القرآن مهمة ضخمة؛ فبه يميز الإنسان الصدق من الكذب، والصواب من الخطأ، والحسن من القبيح. على أن الوعظ لا يجدي لوحده إذا كانت طبائع التفكير سيئة؛ بل إن التفكير السليم يورث الحكمة والسداد: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. الإنسان بطبعه كائن متفكر، فبالتفكير يميز صدق الرسالة من كذبها: لعلهم يؤمنون، وبالتفكير تولد حالة حضور الخالق في نفس المخلوق: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وبالتفكير ينتهي الإنسان عن المفاصد والشرور: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾ [التوبة: ١٢]، ويتوب ويتضرع لخالقه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْضَحُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، وبالتفكير يحاسب نفسه ويُقَوِّمُهَا قبل الفعل وأثناءه وبعده: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وبالتفكير يتصل بربه ويشتاق إليه، وبالتفكير يقوِّم أخلاقه ويهذبها: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وبالتفكير يعمر الأرض ويصلح فيها: ﴿وَأَسْتَعْمِرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. والعكس صحيح: فحينما يختل التفكير تنمو الشرور والنقائص، فالعلم والتفكير: هما طريق الوصول لعمارة الكون والآخرة.

مطلب النضج: حينما تستقيم حياة البشرية وتبلغ مرحلة النضج ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، تتحقق فيها الرحمة والقسط، وتكون قد شَكَرَت الخالق عملياً بلسان الحال والمقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢]، ﴿اعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، حينها تكون شروط النجاح قد تحققت: ﴿لَعَلَّكُمْ نَفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وهو فلاح يشمل الدارين.

موقع الشعائر الكبرى: ما موقع الشعائر الكبرى، كالصلاة والصيام والحج من الدين؟ هل هي من الغايات أم من الوسائل؟

وما موقعها من صناعة الحياة؟ حين ننظر إلى القرآن باعتبارها نسقاً فلا مفر من أن نرتب عناصره في أماكنها ما استطعنا، فالنسق كما أسلفنا لا يعمل كأجزاء، لكنه يعمل ككل.

الدين نسق، والصلاة والصيام والحج: أجزاء مهمة منها، هي وسائل لتحقيق غايات أسمى؛ فالصلاة ذكر، والذكر حضور الخالق في نفس المخلوق حضوراً يجعله بمكانة الرقيب والشاهد على أفعال الإنسان، حضوراً فاعلاً في عمله اليومي، حضوراً يمنعه من المنكر بأنواعه: سواء ما يخفيه الإنسان، أو ما يجاهر به ويتبجح «الفحشاء»؛ يقول الله ﷻ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ويعمل فعل الصلاة ووظيفتها: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وعبر عنها القرآن بأنها «تأمر» كما قال قوم شعيب له: ﴿أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧].

كم من مصلٍّ لا صلة له بغاية الصلاة ووظيفتها؟ إن انصراف الذهن عن الغاية يجعل العمل أجوف، فهو أشبه بسيارة في غير اتجاه؛ مهما دارت لا تحقق الغرض من وجودها. إنها الشق الأسهل من المعادلة، إذ لا تستغرق الصلوات اليومية بمجموعها نصف ساعة من العمل، ويبقى فعل الإنسان خلال ثلاث وعشرون ساعة ونصف فارغاً من غايتها.

إن الامتناع عن الفحشاء والمنكر جزء من التقوى التي تشمل كل حركة الحياة؛ إذ إن كل عمل تدخله التقوى، فالصلاة بكمالها هي من أثر التقوى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿البقرة: ٢، ٣﴾، والصيام شعيرة كبرى، وظيفتها تمكين التقوى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والحج شعيرة كبرى أيضاً، لها وظيفتها التي تخدم غايات النسق: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ﴾ [الحج: ٢٨].

هكذا تلتحم الدنيا بالآخرة، فمنافع الدنيا التي جاء الدين ليعمرها تلتحم بصلة وثيقة بمطلب الآخرة في سعي الإنسان المستمر لتحقيق معادلة: «اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً».

على الرغم من أن ما قيل يملأ النفس بالمعاني، إلا أن هناك المزيد، فلنواصل هذه الرحلة، ولنبحث عن نسق التعايش بين البشر، فهو النقطة المشتبكة في العقل المسلم اليوم؛ إذ إن كل ما سبق كان مقدمات لفرش الطريق أمام طرح المزيد من الأسئلة الكبرى. وفي رحلة البحث عن النسق نحتاج أن ننظر في سورة الفاتحة، فهي ثاني محطات التأمل الكبرى، ومن دونها تضع منا الصورة الأهم.

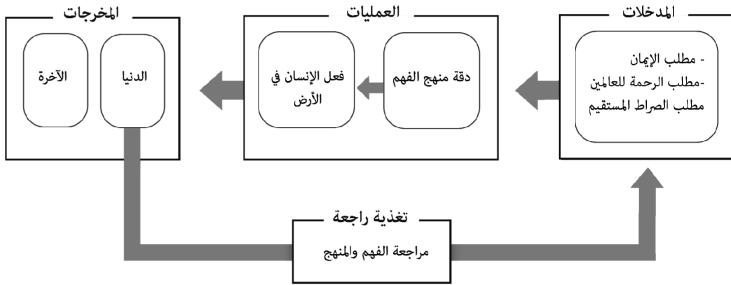
الفصل الثاني

فاتحة الكتاب

ائتمان الإنسان على المشروع
وتنزيله من السماء إلى الأرض

لقد تعلمنا من قصة الخلق أن الإنسان مسؤول عن الإيمان، والإعمار، والعلم، والاختيار، والعمل. وسورة الفاتحة تضعنا أمام متطلبات التنزيل للواقع (إيماناً، وفلسفةً، ومنهجاً، وقلباً، وعملاً، ونتيجة). إن تكرار الفاتحة هو تذكير بائتمان المؤمن الحق على مشروع بسط الرحمة للعالمين، وتجسيدها هو التنزيل العملي لمطالب الدين من الإنسان واستكمال لصورة مشهد لحظة الخلق الأولى.

نموذج تدفقات سورة الفاتحة :



(نموذج ٢ / تدفقات سورة الفاتحة)

القرآن الكريم ساحة ضخمة لتفاعل الوحي مع أحداث المجتمع الأول، يتحرك فيها النص الإيماني، والقيمي، والتشريعي، والقصصي، والأخلاقي؛ إذ ينتقل فيها القرآن بأسلوبه بين شتى المواضيع بحسب الحاجة، ليعبر إلى النفس الإنسانية من خلال العقل والمشاعر. لكن أين تقع تلك الصورة الكلية التي تخزن كل المشهد، والتي تلخص تلك الحقيقة الإلهية؟ إنها فاتحة الكتاب، التي توجز الرسالة وتلخصها. إن معرفة الصورة الكلية التي تحكم حركة أجزاء المشروع القرآني في إنشاء التصور البشري لا بد أن تعبر من سورة الفاتحة:

- ١ - ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.
- ٢ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
- ٣ - ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.
- ٤ - ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

٥ - ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٦ - ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

٧ - ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

سورة الفاتحة تقول للبشرية: آمنوا بإله خالق معتن، آمنوا بأن الرحمة هي الأساس، تحمّلوا مسؤولية أعمالكم لأنكم محاسبون، لا تخضعوا إلا لله، ولا تستعينوا إلا به، الثبات على الصراط المستقيم والاهتداء إليه من تقوى المؤمن، وإن الانحراف عنه ناتج عن فساد الضمير أو عدم التدقيق في المنهج.

تلك هي كبريات المسائل الدينية في شكل عناوين، تجيب عن سؤال الموجود الأعلى، عن عنوان فلسفة الوجود، وعن حرية الإنسان ومسؤوليته، كما ترشده إلى طريق العمل المطلوب عبر نماذج عملية، وتضع له قاعدة السلامة: (ضمير مستجيب إلى الحق ومنهج قويم للوصول إليه).

غياب تصور المشروع:

ليس هناك شيء أكبر من ضياع هوية المشروع، وتحويله إلى طقوس وشكليات لا تقود الفعل الإيماني إلى غاياته السماوية؛ فالفاتحة تركيز كثيف للمشروع في الوعي، هي دعوة لأمّهات قضايا الدين حين يتحول إلى نسخة تبتغي معالجة الواقع الإنساني المتجسد؛ إذ إن الإنسان بعد إدراك الأسس لا بد أن يطرح على نفسه الأسئلة التي يثيرها الوعي بها، فسؤال العقل

المنطقي بعدها يقوده إلى طبيعة التنفيذ، أو إلى سؤال دفتر
التحولات التي يلتزم الإنسان بها، مثل:

● ماذا تعني قضية بسط الرحمة للعالمين من استعداد نفسي
وعقلي وأفعال تجسدها على أرض الواقع؟

● ماذا تعني المسؤولية الفردية التي يُحمّلنا إياها مفهوم يوم
الدين؟ على نوعية العمل الذي نختاره، ودرجة الإحسان فيه،
وعلى علاقته بمفهوم الرحمة؟

● ماذا يعني أن يتجسّد مفهوم الصراط المستقيم في أفعال
المؤمن؟ وكيف سينعكس على تصور الفعل ونطاق الواجبات
الملقاة عليه بعد فهمه؟

● ماذا تعني مسؤولية صفاء الضمير تجاه قبول الحق، ودقة
المنهج، ومعاودة النظر في دقته باستمرار؟

هكذا نتحدث سورة الفاتحة، فلتتابع تدفقاتها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾:

نكرر التسمية مع كل عمل، فهل هذا عمل نفهم مقصده
وغايته أم هو عادة نكتسبها؟

ليست التسمية التي نكررها مع كل سورة ومع كل عمل أمراً
تبركياً يفيد الذكر المجرد، بل هي مشروع الدين في الحياة...
إنها مشروع يقرأ الفعل الإنساني في الكون بأنه صدى لرحمة
الخالق للخلق، إنه أمر يتصل بأعمق ما في النفس الإنسانية من

خير؛ إذ إن الرحمة: هي عاطفة عميقة تقود إلى التسامح من ناحية، وهي عطاء موصول للخلق من ناحية أخرى.

التسامح والعطاء: مفهومان كبيران، متصلان بمشروع الدين في الوجود، لكن كم من العصاة؟ كم من المقصرين؟ كم من المجرمين؟ وكم من الضعفاء والمستضعفين المحرومين في هذا العالم؟ أي رحمة تتجلى في هذا الكون؟ وفي أي اتجاه؟

حينما ننظر إلى مشروع الدين في الحياة - الذي هو إقامة العدل من جانب، ووقف الفساد في الأرض وسفك الدماء وإعمار الأرض من الجانب الآخر - ستتضح وتستبين الوجهة التي تتحرك فيها مسألة العدل، ومسألة الرحمة ببعديها الكبيرين: التسامح والعطاء. ففي حركة الحياة توجد القضايا الكبرى «الفقر، والجهل، والمرض، والحروب» وتشكل قضايا السياسة، والاجتماع، والاقتصاد؛ فما هو المشروع الكوني الذي تطرحه قضية البسمة؟

من هنا يتضح حجم الفجوة بين القرآن الذي نلتقي به في البسمة كمشروع تحرر كوني إنساني قلبه الرحمة، والقرآن الذي يصوره البعض بأنه مشروع احتلال للعالم وقسر وقهر...! على الشباب المسلم اليوم أن يطرح على نفسه أسئلة مهمة: من يمثل التسامح الكوني؟ من يمثل العطاء الكوني؟ من يلتحم بالذين يأمرون بالقسط من الناس؟

إن مشروع الرحمة بالنسبة إلى البشرية هو مشروع عملاق،

والمسافة بيننا وبينه تكمن في عبور جسر الفهم نحو إحداث تغيير حقيقي في فهمه، وهذا ما سينقله من البعد العرقي والطائفي التاريخي الذي أُسِر فيه، إلى بعد إنساني عميق ما زالت البشرية تشاق إليه، ولا ترى له تمثيلاً بعد.

إن مشروع الرحمة للعالمين: هو انتقال في الفهم، يتجاوز الوعي الشائع عمقاً، ويتجاوز دوائر الاهتمام والقضايا التي نهتم بها اليوم، ويتجاوز الأعراق والأجناس، بل ويتجاوز الجغرافيا التي نتعامل معها اليوم! إنه يعني في العمق تنشئة جديدة، ومناهج، ولغة، وفهماً، ودائرة علاقات، وعملاً جديداً.

البسملة هي إعلان عن اختيار واضح بوجود إله خالق **معتنٍ** بالكون، مما يعني أن العناية وكل الرحمة السابغة هي روح البسملة وقلبها، وهي شاملة واصله لجميع الخلق؛ لذلك نجد مشروع الرحمة واسع الذكر في القرآن وبأشكال شتى.

إننا نكرر ذكر الرحمة مع كل بسملة، ومع الفاتحة، ومع قراءة كل سورة، وفي تحيتنا للبشر والخلق؛ بل إننا نطرحه في سلامنا على الرسول أكثر من خمس مرات يومياً، نطرحه في صورة بُشْرِى للناس «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته». وقد ذكر الله بأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أرسل بمد بساط الرحمة للعالمين على سبيل الحصر والقصر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

إن هذه الرحمة تقتضي مد بساط العدل للبشر: ﴿وَأَنزَلْنَا

مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿٢٥﴾ [الحديد: ٢٥]، وهو مشروع لم يكتمل بعد؛ فقد طرحه الرسل عبر البلاغ المبين: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمِثُ﴾ [العنكبوت: ١٨]، وواصلت البشرية فيه تجاربها، مؤمنها وكافرها، فأنتجت بعض المجتمعات نُظماً داخلية صالحة لأهلها، لكنها عجزت، على الرغم من النداء، عن بسطه كرحمة للعالمين؛ إذ قصرته وجعلته حكراً على شعوبها، وبقيت البشرية في شوق لما هو أسمى وأعلى. إنه عدل يشمل كل البشر بمختلف مللهم ونحلهم ﴿لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، وهي مهمة تنتظر أمة حاملة للنور، تعطي من نفسها وتمد بساطه ليشمل الإنسان في كل مكان.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾:

إعلان مؤكد أن الخالق هو رب العالمين، وأن رحمته ممتدة لكل خلقه، مؤمنهم وكافرهم. إن القرآن يؤكد وبشكل مستمر بأن العناية بالكون ليست نتيجة الرضى بل نتيجة القبول؛ فالله لا يرضى الكفر لكنه يقبل بوجوده كاختيار بشري في امتحان الإنسان في الحياة. وهو فوق ذلك يبسط للجميع من رحمته، ويحملهم في البر والبحر ويرزقهم من الطيبات: ﴿كُلَّا نُمِدُّ هُنُوْلًا وَهُنُوْلًا مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]؛ إنه أمر متعلق بتلك الرحمة الواسعة لا بموقف الإنسان من الدين، هم مكرمون باعتبارهم بشراً. مشروع الرحمة للعالمين والعناية بهم هو انعكاس لذلك الفهم.

القرآن يُعَلِّمُ الإنسان عبر الفاتحة وغيرها بأن يحمد الله على

أنه رب العالمين، ويخبر بأن رحمته وسعت كل شيء: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فكل ما عدا الخالق داخل في الرحمة. إن الحضارة المثلى يجب أن تكون رحيمة بالأرض والسماء، ورحيمة بالإنسان والحيوان، ورحيمة بالشجر والحجر، ورحيمة بالماء والهواء، وينبغي أن لا تردد ذلك أقوالاً، بل أن تعيش تلك الحالة في أخلاق أفرادها، وفي تشريعاتها، وفي ممارساتها ومشاريعها.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾:

إحدى أهم المسؤوليات الملقاة على عاتق الإنسان المؤمن هي مسؤولية العناية بالخلق: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُوءًا قَوْمِينَ بِأَلْفُسُطٍ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾^(١)، ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِأَلْفُسُطٍ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^(٢). وهذه المسؤولية ستقتضي المحاسبة، فلا غرابة أن يعرض القرآن موضوع ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ باعتباره نقطة ارتكاز لفكرة المسؤولية عن العمل. إن عودة الإنسان لخالقه مسألة كبرى، والقرآن حين يبينها يخبرنا بأن هناك دوراً وظيفياً لذلك البيان؛ إنه أمر متعلق بتلك المهمة التي وُكلت إليه في الأرض؛ إذ إن ما يُحاسب عليه الإنسان هو ما يفعله في الأرض، كالإيمان

(١) القرآن الكريم، «سورة النساء»، الآية ١٣٥.

(٢) المصدر نفسه، «سورة المائدة»، الآية ٨.

والكفر، والخير والشر، والصواب والخطأ، كل هذه القضايا نتاج فعل في الحياة الدنيا ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٣).

إن لليوم الآخر مفهوماً واسعاً؛ فعلى سبيل المثال: مطلب العدل لا تكتمل دائرته في الحياة الدنيا، إذ إن حظوظ الناس في الدنيا متفاوتة - الفقر، الجهل، الأمراض، الحروب - مما يجعل الفوارق بين البشر في مسيرة حياتهم تختلف اختلافاً كبيراً، فهناك من هو مطمئن البال، آمن في سربه، لا يشكو قصوراً؛ وهناك من حظه سرابٌ. ومن هنا ولد سؤال الشر، الذي يجعل كل الإجابات الملفوفة الجاهزة تعجز عن حل ذلك اللغز المتعلق بمراد الخالق من هذا التباين، مما لا يُبقي سبيلاً لإغلاق الدائرة إلا بوجود عدل نهائي يجعل انتظارات الإنسان ذات معنى، واليوم الآخر يلعب هذا الدور المهم.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

هذه الآية تجعل الإنسان طالباً لأمرين: طريق العبادة وطريق العون؛ وهما يتجهان إلى الله ومنه. إن هذا الطلب مفهوم له بعدان: بسط مفهوم العبادة، وإزالة الوسطاء.

البعد الأول:

تُعتبر العبادة فعلاً جامعاً لكل النشاط الإنساني القاصد

(٣) المصدر نفسه، «سورة الزلزلة»، الآيتان ٧ - ٨.

إلى الله، النافع للخلق بشقيه «الشعائري والديني»، هذا ما يظهر واضحاً في كتاب الله، وهو امتداد بياني لفكرة الرحمة بالعالمين، وامتداد لمسؤولية الإنسان عن بسط هذه الرحمة للمخلوقات. على أن هذا الفعل الجامع هو موضوع سيشرحه القرآن بوصف ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وذلك في قوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

إن العبادة في العقل المسلم السائد اليوم ليست التي في القرآن، والتي تعني كل طريق يؤدي إلى نعم الله التي منحها للإنسان؛ بل سنجدها في الوعي العام بشكل آخر، إذ أصبح العقل لا يستدعيها إلا في سياق الشعائر أو بعض الأعمال الصالحة الجزئية؛ إنها لم تعد تستوعب متطلبات الإعمار، لكنها أصبحت فعلاً مريحاً للضمير في أدنى درجات الفعل: صلاة، صياماً، حجاً، صدقة، سداً لاحتياجات الفقير أو المسكين، حلاً لحالة آنية.

أما الصراط المستقيم فهو أمر سيشرحه القرآن عبر الأمثلة الحية؛ لأن البشر سيغتالونه بفعل عوامل التدين التي سارت فيها كل الأمم من قبل، مما أدى إلى تقزيم مفاهيم القرآن، فاختلّت الصورة وضاعت الخارطة، ولا سبيل لعودة الحيوية إلى مجتمعنا المسكون بالدين إلا بإعادة الحياة لمعاني القرآن ومفاهيمه الكبرى كما تنزل في أول عهده. إنها مسافة كبيرة، ومعركة كبرى؛ لأنها تقتضي إعادة إنتاج صورة العمل الصالح في مناهج التدريس وهيئاته، وفي كتب العلم، وفي فكر الخطباء والوعاظ، ومن ثم في عقل الجموع المسلمة.

البعد الثاني :

سنجده يخبر بأن أهل الأديان - من رهبان وكهنة - دائماً ما يعمدون لوضع الوساطة بينهم وبين الخالق في حياة البشر، الأمر الذي كان جلياً في مختلف الديانات التوحيدية والوثنية؛ ومراد الشارع هو تحرير الإنسان من كل سلطة أرضية.

إن الرهبان والكهنة هم حالة إنسانية ابتليت بها كل الديانات التي سبقت الإسلام؛ لكونها حاملةً راية الدين تحت لواء وسطاء الرب على الأرض. وتطرق القرآن لهذا النوع من رجال الدين في الأمم الأخرى هو تحذير للأمم الخاتمة، خصوصاً أنه ليس بالضرورة أن يعلنوا أنفسهم وسطاء، كما أنه ليس بالضرورة أن يعتبرهم الناس وسطاء أيضاً، لكن ممارستهم للدور وتقمصهم له هو المهم، فكلما هم الذي يخاطبون الناس به لا يوحى أنه من فهمهم واجتهادهم، إنما يطابقون بين قولهم ومراد الشارع: «الله». فهم حين يُخاصمون ويجادلون مخالفينهم في الرأي، ينظرون إليهم على أنهم مخالفون لمراد الشارع لا لفهمهم هم.

وهكذا انحرفت الديانات السماوية، وأصبح الدين أداة للفرقة والاختلاف، وبذلك لا غرابة في فوضى الفتاوى والاجتهادات المتباينة التي قادت ومازالت تقود إلى التناحر، والاقتتال والدماء، والتفريق بين المسلمين، والتفريق بين الإنسان وأخيه في العالم. إن الأمر ناتج عن فكرة الوسطاء الذين يطابقون قولهم بمراد الشارع دون تمييز. كيف لنا أن نحل هذه المعضلة المزمنة التي تخلقت في البيئة الإسلامية كما تخلقت في

البيئات السابقة ما لم نستجب إلى مطالبة القرآن بتنحية الوسطاء؟

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾:

إن الطريق المستقيم يحتاج إلى كتاب محفوظ، ويحتاج إلى هداية عون ضرورية ﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لفهم هذا الكتاب، والعمل بقيمه، وانتهاج السلوك وفق مراده؛ لكن ما هو هذا الطريق؟ وكيف يتجسد؟

القرآن شيئاً فشيئاً يكشف عن معنى العبادة والاستعانة المقصودة، ويصفها بأنها طريق مستقيم، يقود إلى ذلك الفوز الموعود في الدارين (الدنيا والآخرة)، ومثال ذلك ما ندعو به: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة»، فهل هناك المزيد من الشرح لبيان المراد؟

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾:

﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] الذين يأمرهم بالقسط من الناس، إنهم خلق كبير من البشر، عرضهم القرآن بنماذجهم البشرية، حتى لا يلتبس الطريق على السالكين، ولا يعود الأمر بحاجة إلى اجتهاد، فهم بشر قدموا نماذج شملت كل مقتضيات السير في الطريق المستقيم، لكنهم كانوا ملتزمين بما اقتضاه الشرع؛ لذلك لا بد من تذكُّر أعمال السابقين الصالحة باستمرار، حتى لا ينحصر المعنى ويتقلص ويتقزم. لكن هل لنا أن نسأل ما الذي يعيق الوصول إلى الطريق المستقيم في حياة البشر؟

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾:

إن أول الآفات الكبرى التي تعترض الوصول إلى الطريق المستقيم هي آفة فساد الضمير، التي تمنع صاحبها من قبول الحق متى استبان له؛ إذ إن البشر مرتبطون بموروثاتهم ومصالحهم وعواطفهم أكثر من ارتباطهم بالحقيقة، مما يجعل آفة الكبر والهوى تعصف بالنفوس.

لقد ضرب الله مثلاً ببني إسرائيل، وهم ليسوا استثناء، فلو كان الأمر مقصوراً عليهم لما ورد التحذير إلينا، لكنها آفة عامة في البشر، قابلة للحدوث من أهل كل ملة ودين. الموضوع ليس في قبول دين أو ملة، لكن في علاقة الإنسان بالحق والحقيقة، ودرجة صدقه مع نفسه ومراقبته لها؛ فعمليات الإصلاح في شتى مناحي الحياة تواجه بعناد البشر وتآلفهم مع موروثاتهم حتى وإن خالفت الحق والحقيقة. إن صراع الإصلاح يمر عبر تلك البوابة الكبرى: سلامة الضمير. ولكن هل ذلك هو الحاجز الوحيد أمام الإنسان؟

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾:

الضلال والهدى متعلقان بصحة المنهج أو فساده، فهما من مصطلحات الطريق، والقرآن خاطب العرب بالأمور والأشياء المألوفة لديهم، حتى في اللغة، فالعربي يسير في الفلاة الواسعة، إذا اهتدى للطريق نجا، وإن ضل هلك؛ لذلك استعارها القرآن لفكرة الاتباع القرآني باعتباره كتاب هداية موجّهاً للبشرية عبر استخدام لغتهم.

إن قراءة القرآن والاستفادة منه هي وليد منهج ينتجه الإنسان، وهذا المنهج البشري - الوسيط - يُعتبر نحتاً بشرياً يحتاج إلى تدقيق؛ من هنا تعددت القراءات للقرآن، فهناك من يقرؤه مجزئاً عبر المأثور، وهناك من قرأه بالتأويل والكشف، وهناك قراءة تدقق وترى أن لكل سورة نسقها، ولكل قراءة نواقصها. ولكن لماذا التدقيق في المنهج؟

لقد مرت البشرية، وما زالت تمر، بموجات من اليقينيّات الموهومة، فقد آمنت يوماً بأن الأرض مسطحة وبنّت على ذلك قراراتها، ومن ثم اكتشفت - بعد ألف عام - أنها أخطأت الطريق، نتيجة قصور المنهج. وقد كانت صدمة كبرى، أدت إلى ثورة في المناهج ما زالت قائمة. إن التدقيق في المنهج أمر في غاية الخطورة، ويحتاج إلى عقول جبارة منفتحة على احتمال الخطأ؛ إذ إن قدرة البشر على مراجعة المناهج درجات.

المناهج هي نحت بشري إلى أن أسبغت بالقداسة، ونُزّهت عن النقص، فاستحالت مراجعتها. وإن كانت النصرانية وُصفت بخطأ في المنهج، فهي ليست استثناء؛ إذ إن فساد المنهج يأتي بسبب كونه بشرياً، وإسباغ القداسة عليه هو آفة مطّردة في البشر، لا تسلم منها أمة.

رؤية النظام: الرؤية الكلية لسورة الفاتحة:

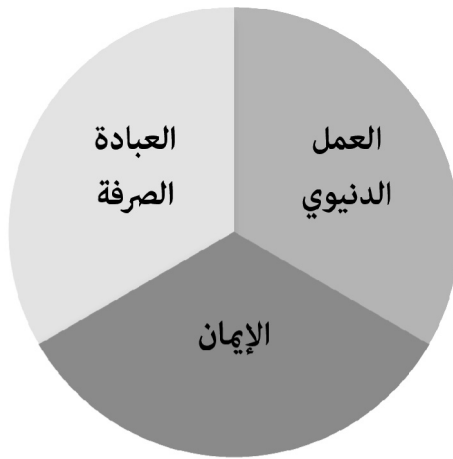
إن المشروع القرآني في الكون ينتظم في سورة الفاتحة؛ فهي انطلقت من نقطة الإيمان إلى تقرير الرحمة الشاملة لكل

المخلوقات، ثم أسست لفعل الإنسان في الأرض، متمثلاً في العبادة والاستعانة، وشرحتها السورة بأنها الطريق المستقيم - الذي قدم لنا القرآن نماذجه في سوره وآياته الأخرى - وأن هناك نتيجتين للفهم والتنفيذ: نتيجة أخروية علمها عند الله، ونتيجة دنيوية يمكن رؤيتها في واقع المجتمع الإنساني. هاتان النتيجتان هي مصاديق الرحمة بين البشر والإعمار الذي يتسع لكل البشر؛ لكن إن اختل النظام، عاد الناس للتأكد من مطالب الخالق ومن منهج الاستنباط من كتاب الله.

إن إنشاء أمة جديدة يحتاج إلى أمرين كبيرين، أولهما: إعداد الإنسان الذي يتمتع بسلامة القلب ومزود بمنهج سليم؛ ثانيهما: تعريفه بخالقه، وفلسفة حياته، ومهمته، ومصيره، ومسؤوليته عن ذلك المصير.

الفصل الثالث

الأبعاد الثلاثة



(نموذج ٣ / الأبعاد الثلاثة للدين)

سبق أن تطرقنا إلى كُبريات القضايا من سورة الفاتحة. لكن ما الذي سيشكل خطراً على فهم الدين ويقود إلى فقدان فاعليته؟ هذا ما حدثتنا عنه سورة البقرة في فواتحها، إنها تقوم بتعريف «المُتَّقِينَ» الذين ينتفعون بالقرآن، ويحملون فهماً ذا ثلاثة أبعاد:

إيمان، وصلاة، وإنفاق في الأرض. إن هذه الحلقات المجتمعة هي مقتضى التقوى، وعلامة سلامة الفهم، والدليل على طريق الفلاح.

لنمض مع مقدمات سورة البقرة التي تبين الأبعاد الثلاثة:

١ - ﴿الْم﴾.

٢ - ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٣ - ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾.

٤ - ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

٥ - ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ها نحن أمام تركيز شديد يُضيفه القرآن إلى مشروع الرحمة بالعالمين، هذه الرحمة التي توجه الفعل إلى التقوى والفلاح، والذي يأخذ ثلاثة أبعاد متكاملة:

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: الإيمان بالخالق، والحساب، والجنة والنار، هو جزء من التصور.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: جزء الروح وصلتها بخالقها، وبحسب القرآن فهو جزء وظيفي يجعل الخالق حاضراً - معنى الذكر في القرآن - في وعي المخلوق، فيمتنع بهذا الحضور عن الفحشاء: التي هي كل متناهٍ في القبح من القول والفعل الذي يجاهر به

صاحبه ويعلنه؛ والمنكر: الذي هو كل ما تقرّر وتَحْكَم العقول السليمة بقبّحه، أو حرّمه الشرع أو كرهه. إن المنكر هرّم قمته الفحش.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: لقد رزق الله الإنسان العقل، والصحة، والمال، والعلم، والوقت، والجاه، وحسن إنفاق كل ذلك مؤدياً الرسالة بنشر رحمة الله في الأرض عبر وقف الفساد وسفك الدماء، وسريان العمران في هذه الدنيا.

نحن أمة انفكت فيها الروابط الحميمة بين أبعاد التصور القرآني للفعل الإنساني، واختلّت صورة المفاهيم حتى غاب المعنى القرآني وتقزم؛ إذ اكتسبت معاني بديلة عبر الخطباء والوعاظ؛ فكلما ذُكرت الألفاظ القرآنية أصبح العقل المسلم يستحضر مفاهيم رجال الدين فقط.

إن أول مشاكلنا تكمن في انفكاك الروابط بين المعاني الثلاثة الملازمة لـ «التقوى» والدالة عليها؛ فنتيجة الفلاح مرتبطة بفعل التقوى، ومؤشرات التقوى الخارجية تتمثل في مثلث متساوي الأضلاع، وهي: الإيمان المؤسّس للفعل، والعبادة المذكّرة للعبد والمانعة من الفحشاء والمنكر والباعثة على التقوى، والإنفاق المطلق للعمران في الأرض.

فلا مجال لإيمان مجرد لا يحرك الإنسان في اتجاه مطالب السماء مع اتجاه عمران الأرض. الإيمان في القرآن دائماً يتبعه العمل الصالح: ﴿ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]. إن العمل

الصالح يتكرر مع كل أمر بالإيمان، لأنهما وجهان لعملة واحدة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١ - ٧]. إن الوجه الآخر للإيمان هو «عمل في نفع الخلق والمجتمع».

لقد فعلت اتجاهات الوعظ في البيئة العربية والإسلامية فعلتها، فغيرت كيمياء الإسلام حتى بدا وكأن العمل في الدنيا هو انتقاص من عمل الآخرة، وتولدت ترسانة كبيرة تُهَوِّن من شأن الدنيا والاهتمام بها؛ طائفة أنها مشغلة عن الآخرة في المطلق، فضاعت بوجهة التوازن، ونسي من نسي أن الدنيا تدافع بين البشر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

إن الدفاع عن منظومات الأفكار وعن الإيمان نفسه يحتاج إلى امتلاك كل مقومات القوة في الدنيا؛ فالمحافظة على الأرض التي نصلي عليها، والكتاب الذي نحمله، تحتاج إلى علوم السماء والأرض. وكرامة المؤمن لا يمكن أن تتحقق وهو يمد يده متوسلاً سلاحه، وطعامه، ودواءه، وشرابه، وتعليمه، وكتابه، ومعارفه، وكل مستلزمات حياته.

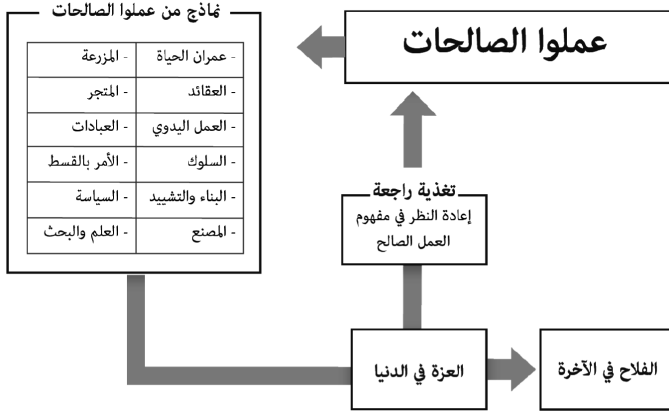
إن خط التذكير العبادي - المتمثل في الشعائر - يلعب دوراً مهماً بين الإيمان والعمل؛ إذ نجد الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصوم يقود إلى التقوى. إنها ثلاثية تعمل بتناغم، لا غنى لأحدها عن الآخر، وإذا تفككت فقد الدين فاعليته في واقع البشر.

الفصل الرابع

متطلبات العمران

نموذج تدفقات العمل الصالح ونطاقه:

العمل الصالح يُعرّف نفسه من خلال النماذج التي مثلته في القرآن، والتي صنعت عمران الحياة المُحقّق للرفعة في الدنيا والفلاح في الآخرة، فإن لم تتوفر الحياة الكريمة في الأمة، فيجب عليها أن تعيد النظر في مفهومها للعمل الصالح.



(نموذج ٤ / العمل الصالح)

ماذا حدث لمفهوم العمل الصالح بين وعي المسلم ونزوله إلى ساحة الفعل في صناعة المجتمعات؟

سنستخدم مفهوم الأمة بمعناه الديني الذي يشمل كل المؤمنين عبر التاريخ، وقد يشملهم في عصر ما، سواء اجتمعوا في كيان سياسي خاص بهم، أو تفرقوا في العديد من النظم السياسية بتعاقدات مختلفة.

حينما نستدعي الأيتام، والفقراء، والمساكين، والنسّاك، والعبّاد، والزهاد مع كلمة العمل الصالح، وننسى العلماء، والصناع، والحكّام، والقضاة، والباحثين، والنجارين، والمبدعين، والمزارعين، فهناك مشكلة كبرى؛ إذ إنه تم برمجة عقل الجمهور المسلم على أعمال صالحة محددة بشكل قزّم النص والمراد القرآني، وتم اعتبار الأعمال الأخرى من جنس مشاغل الدنيا وملهياتها، مما أضر بالوعي في مجتمعات منهكة، تأكل ما يزرعه غيرها، وتلبس ما ينسجه غيرها، وتتطبّب بما يصنعه غيرها، بل وتحارب بسلّاح غيرها. لا يمكن لمثل هذه المجتمعات النهوض والتقدم إلا إذا عاد مفهوم العمل إلى قامته القرآنية. والسؤال هنا: ما هي قامته القرآنية؟

لماذا تنتصر أمم وتسقط أمم؟

في صراع الأمم ومسيرة الحياة توجد الأمم القوية والمنيعّة، والأمم الضعيفة الهشة. ولو تساوى الناس في الكفر فسبقوا عطاؤهم في الدنيا هو الفارق في قوتهم أو ضعفهم. إن الأمم

التي تضبط نظمها السياسية والاقتصادية ستأكل مما تزرع، وتتعالج مما تنتج، وتحارب بالأسلحة والآلات التي تصنع حتى تنجح وتتفوق. لكن هل الأمة المؤمنة اعتقاداً والمجتمعة سياسةً التي قوّمت العمل الصالح ستنافس من أحسنوا أم ستصبح تبعاً لهم؟

هل المشكلة في الإيمان أم إنها في اختلال مفهوم العمل؟ وما مصدر هذا الاختلال؟

مشروع القرآن في الأرض سيتحقق من خلال فعل الإنسان في الواقع، لكن مفهوم العمل الصالح الذي هو فعل الإنسان المؤمن في الأرض أُصيب بشلل! لقد تقزم نوعاً وكمّاً، وتحول عبر الوعّاظ إلى أمثلة محدودة، تبدأ من أداء العبادات الصرفة (الشعائر)، وتمر عبر أعمال الإحسان الفردي، ثم صمت مطبق **عن كافة الفعل في المدرسة، والجامعة، ومركز البحث، والمصنع، والمزرعة، بل وفي نشر الحق، والمساواة، والعدل، والسلام.**

أما من ناحية الكم، فكلما قلّل الإنسان من فعل الدنيا - بحسب الوعّاظ - كان أقرب إلى الله؛ هكذا تُصوّر المواعظ مطالب الدين للمؤمنين، هي لا تقول لهم أقيموا عباداتكم الصرفة على أكمل وجه، ثم انصرفوا للإحسان في دنياكم مستحضرين النية فتقلب دنياكم لعبادة، بل تلح عليهم بترك الدنيا وراءهم، وهم حينها يذهبون إلى أعمالهم التي لا بد منها، لا يستشعرون لذتها ولا دورها في خدمة الدين والدنيا؛ فلا هم

أصبحوا عباداً كما يريد الوعّاظ، ولا هم أصبحوا مبدعين في أعمال الدنيا كما تتطلب مسألة إعمار الكون من ناحية أخرى.

هكذا فقدت المجتمعات التي يغلب عليها المسلمون فاعليتها، فمن لا يرى أن الصبر في المصنع، والمزرعة، ومركز البحث، والجامعة جزء من خدمة الدين، ومطلب ربانيّ لإعمار الحياة، ولا يرى في مطالب العدل، والمساواة، والبر، والقسط عملاً صالحاً؛ فلا بد أنه خاسر في سباق الحياة، ولا تُستبعد خسارته في الآخرة أيضاً، لعدم اهتمامه بمطالب الشارع وعمل الصالحين الذي حث القرآن عليها. إن خروج المجتمعات المسلمة اليوم من مأزقها التاريخي مرهون باستعادة فكرة العمل الصالح الذي أشار إليه القرآن وربطه بالإيمان في كل موضع.

العمل الصالح مرهون بإحداث ثمانية اختراقات في العقل المسلم:

ما هي القيم التي تسمح لمجتمعات بالتقدم على الرغم من قلة مواردها وتمنع أخرى على الرغم من وفرة مواردها؟ في الوقت نفسه، تُعتبر مجتمعاتنا متدينة، إذ إنها تبحث في كل شأن لها عن إجابات دينية - وإن لم تتبعها في كثير من الأحوال - السؤال هنا: ما علاقة فهم الدين وحالة التدين بمنظومة التخلف؟ نحتاج إلى زيارة تلك المناطق التي لم يصلها التعليم ولا الوعي الاجتماعي، والتي لن نستطيع اختراقها إلا إذا وعينا خطورتها، وأصبحت هي مؤشرات التقدم والتخلف، حينها ننتهي من

مؤشرات السطح ونصل إلى جذور التخلف، ونقرر إما البقاء في شكل التقدم الخارجي وإما الغوص في مضمونه.

• النظرة إلى الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]. أي نظرة نحمل للإنسان وطبيعته؟ هذه هي نقطة الانطلاق لكل نجاح. فالمجتمعات التي تنظر إلى الكرامة الإنسانية على أنها حق وجودي ومطلق للإنسان تتصرف على هذا الأساس في كل مناحي الحياة، سواء في البيت مع الأسرة أو في الوسط المحيط بها، فكل شيء له علاقة بالإنسان المكرم ستعكس عليه تلك النظرة، أما المجتمعات التي تعاني من القهر، والإذلال، وتردي الخدمات، والفقر، والبطالة هي مجتمعات تعاني في عمقها من سوء النظرة إلى الإنسان عموماً، فينعكس ذلك على البيت، والمدرسة، والجامع، والجامعة، والإعلام، والتشريعات.

إن قضايا حقوق الإنسان تنطلق من مبدأ الكرامة الإنسانية، إذ لا يوجد نظام ولا مجتمع خالٍ من العيوب، لكن هناك فرق كبير بين مجتمع يطلق طاقات الإنسان ومجتمع يحاصره ويسد في وجهه الأبواب. إن الدين قد زودنا بالاتجاه.

• النظرة إلى العلم: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. إن قلب العلم هو اختبار الأفكار عبر فحصها في محكمة الدليل والبرهان، فهل تلك الروح المعرفية التي تبحث عن الدليل والبرهان منتشرة؟ كم هو مقدار ممارسة التفكير المنطقي والتفكير

الناقد في المجتمع؟ ما مستوى الترحيب بالسؤال والبحث؟ أهو مجتمع يفرح بالسؤال الجديد ويشجع إنتاجه أم هو مجتمع يحارب السؤال ويخاف من مواجهة متطلباته؟ ما نوع العلم الذي نهتم به؟ أهو علم تراثي نعيد إنتاجه المرة بعد الأخرى، أم هو علم لدني ننتظره كهبة من السماء، أم هو علم فلسفي مجرد، أم هو علم تجريبي محكمته المعمل والمختبر؟ كيف ينظر المجتمع إلى العلماء والباحثين؟ إن الإجابة عن الأسئلة تعني الكثير بالنسبة إلى تطلعات المجتمع الصحي والدولة الطموحة.

حينما تنتشر ثقافة مضادة للسؤال، ونمط تفكير عاطفي بعيد عن الدليل والبرهان العلمي، وبعيد عن التجربة والمختبر، فلا غرابة في أن يتخلف المجتمع عن مسaire غيره من المجتمعات الناهضة.

● النظرة إلى الطبيعة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. الطبيعة هي الكون المحيط بنا: شجره، حجره، ماءؤه، هواؤه، سماؤه، مطره، رعدده، برقه، جاذبيته، موجاته؛ بل حتى الإنسان وجسده من مادة الطبيعة. إنه كون مليء بالقوانين التي تسمح بتسخيره والاستفادة منه، وكل تهوين في طبائع المادة وقوانين السببية هي بُعد عن سنن الفاعلية.

هل لنا علاقة وثيقة بالطبيعة؟ هل تشير الطبيعة دهشتنا

وتدعوننا لدراستها والبحث فيها والعناية بها؟ إن المجتمعات التي لا تدهشها الطبيعة، ولا تتفاعل معها، ولا تبحث عن أسرارها، تعجز عن الدخول في السباق الحضاري. فهل مجتمعاتنا، مع كل ما تنفقه على التعليم، تمتلك ذلك الشعور البحثي الوثيق بالطبيعة؟ هل تحولت الطبيعة إلى موضع بحث ونظر في مجتمعاتنا أم ما زلنا بعيدين عن ذلك؟

● النظرة إلى العمل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. كيف ينظر المجتمع إلى العمل؟ عندما تعتقد المجتمعات أن الحياة سباق نحو الأفضل، ويصبح الإنسان فيها صانع ذاته ومجتمعه، ستكون فكرة الإتقان الأقصى، وتجاوز الإنسان لحدود الواجب إلى درجة الإحسان، جزءاً من سلوكه وثقافته. قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

المجتمعات تتفاوت في نظرتها إلى دور الإنسان في صناعة الحياة، وينعكس ذلك على تنشئتها واستقلالية أفرادها وشعورهم بالإمكان. فهل تكونت فكرة العمل، والإتقان، والإحسان، والاستقلالية في الوعي الاجتماعي؟ هل يشعر إنسان مجتمعنا أنه قادر على التأثير في مصيره ومصير مجتمعه والبشرية إذا جد واجتهد؟

● النظرة إلى الوقت: قال عليه الصلاة والسلام: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». كيف ننظر إلى

الوقت؟ وكيف نتعامل معه؟ التراب، والإنسان، والوقت^(١) عبارة عن مستلزمات الحضارة. التراب: رمز للموارد المتاحة في كل مجتمع، وهو مدخلاته العملية الحضارية. والإنسان بذكائه ومهاراته يحوّل تلك الموارد إلى ثروة، مستفيداً من الوقت، وهو في سباق مع أمم الأرض على الزمن، إذ إن الأمم المتحضرة والمتقدمة تنظر إلى الوقت على أنه ثروة، وقضية حياة أو موت كسباق بشري، فهل ذلك جزء من ثقافتنا؟

إن الزمن مرتبط بدقة التنفيذ وب حفظ الوعد والعهد، فهل أفلح التعليم في زراعة ذلك المفهوم في بيئاتنا أم ما زال الوقت عبئاً يحتاج إلى طريقة لإهداره؟ هل مؤسساتنا، وطرائق عملنا، ومواعيدنا تعكس شعوراً بالزمن أم لامبالاة؟ إن المجتمعات التي لا تحدث اختراقاً في فكرة الزمن عاجزة عن التقدم.

• النظرة إلى الآخرة: «اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ». التصورات الدينية السائدة تشكل أساساً كبيراً في بناء المجتمعات، فهل تصوراتنا الدينية توجه الناس إلى اعتبار الآخرة وسيلة للإحسان الأقصى في الدنيا، أو على النقيض من ذلك توجههم إلى اعتبار الدنيا والآخرة مشروعين متضادين بشكل يُوجّه الناس إلى أن سبيل الوصول إلى النجاة في الآخرة هو إهمال الدنيا؟

(١) مالك بن نبي (بتصرف).

إن التصورات الدينية عندما تكون على النقيض، وتدعو إلى العكس، كالتزهيد في الدنيا، فلا غرابة أن يضعف حضور الإنسان في الفعل الحياتي لصالح شعور منقسم؛ فإن حضر الشخص في صناعة الحياة تجده يعاني من الشعور بالقصور والتقصير في حق الآخرة. ولا حل إلا في استيعاب التوازن من المنظور القرآني والسنة النبوية لفهم علاقة الآخرة بالإحسان في قضايا الحياة من صناعة، وزراعة، وتجارة، وعلم، ومعرفة، وهذا أمر ضروري لأي تقدم في المجتمع وإلا بادت محاولات التقدم بالفشل؛ لذلك نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يوجّه بأن العمل للدنيا عبادة متى استحضرت النية: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى».

• النظرة إلى المجتمع الداخلي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]. هل المساواة قائمة والنظرة أفقية؟ هل مشروعنا الوطني جامع لكل أفراد المجتمع؟ هل ينظر الجميع إلى بعضهم البعض باعتبارهم أكفاء مستحقون للكرامة الوجودية، والاحترام، والعدل، والود، ذكوراً وإناثاً، باختلاف أعراقهم، وألوانهم، ولغاتهم، وثقافتهم، أم إن النظرة هرمية بشكل يقود نحو سباق فرعوني حول السيادة؟

• النظرة إلى المجتمعات الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]. هل ننظر إلى البشر في المجتمعات الأخرى على أنهم مشروع تعارف أم مشروع احتراب؟ وعلى

أنهم مجال منفعة أم ضرر محقق؟ إن القرآن يجعل التنوع البشري ثروة للتعارف، فهل استقر ذلك في وعينا أم إن ثقافتنا تقوم على الخوف والعداء للآخر المختلف؟

ماذا يحدث عند فقدان المجتمع هذه القيم كلها؟

بالتأكيد سوف يفقد كرامته الوجودية وحريته، ويفقد اتصاله بالطبيعة ودراستها، ويفقد المنهج العلمي في البحث والنظر، ويفقد معنى الحياة ودوره فيها، ويفقد الوقت قيمته عنده، يتعلق نظره بالماضي لا المستقبل، ويتحول الدين وسيلة لتغييره من الإحسان في الدنيا، أو لنشر الفكر الخرافي والقصص الوهمية، وحينها أيضاً ستعم الطبقية بين أطراف المجتمع، وستنتشر النظرة المعادية للمجتمعات الأخرى. فماذا يمكن أن يكون مصير هذا النوع من المجتمعات؟

قد يقول قائل: في كل ذلك للإسلام قول حسن، الآخرة جزاء على عمل تمّ في الدنيا، والناس كلهم لآدم في المشروع القرآني سواسية كأسنان المشط، وقد حث الدين على العمل الصالح والكسب، وأشادت «سورة العصر» بأهمية الزمن، كما أن القرآن حث على طلب العلم والتفكير، والنظر في الكون والطبيعة، وحذّثه عن التسخير؛ بل نجد أن الله قد كرم الإنسان حتى سجد له الملائكة الأعلى بأمر من رب العالمين...

لكن حين يتوقف الحديث عند هذه الفقرة، نفقد الخط الناظم للحديث المنتج؛ فالسؤال ليس عن أحسن قراءة لتقديمية

للإسلام، بل عن القراءة السائدة في الواقع، كم تقترب من تلك النظرة المتقدمة؟ وما نصيبنا من هذه التوجيهات في واقعنا؟ ألم يتم استبدالها بتصورات دينية زائفة ومحبطة؟ إن كان الإسلام هو ذلك النور كله - وهو كذلك - فقطعاً ما يمثله الواقع من تصورات - خصوصاً على المنابر - هو شيء مختلف عن طبيعته. والتحدي الكبير هو: كيف نغرس المفاهيم والتصورات الصحيحة مكان تلك التصورات الزائفة؟ وكيف يتم محو الصورة المشوهة والسائدة اليوم من الطرح المتداول؟

قراءات متعددة..

إن النصوص المتنوعة في الدين قابلة للقراءة في اتجاهات متعددة بعدد أنفاس الخلائق، خاصة في تفسير الحياة وطبيعة الفعل فيها؛ لذلك لما أراد علي بن أبي طالب محاجة الخوارج، بعث عبد الله بن عباس رضي الله عنه وقال له: «لا تخصمهم بالقرآن، فإن القرآن حمّال أوجه، ذو وجوه، تقول ويقولون». وهذا لا يمنع الاتفاق على أمهات المسائل: مثل الإيمان بالله واحد، والمعاد، ورسالة النبي، والقرآن، والتكاليف الواضحة، والمحرمات الكبرى، وعلى أمهات الأخلاق.

لكن مساحة صناعة الحياة واسعة، وهنا تظهر التحديات؛ فنحن بحاجة أن ننتج عقلية تؤمن بأن الإنسان مستحق للحرية والكرامة لكونه إنساناً: لفعله تأثير في الكون، وهو مسؤول عن أحسن العمل، والكون مسخر له؛ ليوظف علمه في اكتشاف

أسراره، ووسيلته في كل ذلك الدليل، والبرهان، والتجربة، والاختبار. وفي هذا السباق سنجد بأن الزمن سلاح ذو حدين: إما أن يكون له أو عليه؛ لذلك هو مسؤول عن احترام وقته ووقت الآخرين، والمجتمعات التي لا تقر مبدأ المساواة ستؤسس للصراع والفرقة، وأن الدين دافع للعلم وللجودة في كل شؤون الحياة، وأن ينظر إلى المجتمعات البشرية بأنها فرصة للتعارف والتآلف وإقامة العدل الكوني وبسط الرحمة للعالمين. وبذلك يأتي دور النسق القرآني كأساس لإصلاح تلك المنظومات التي دمرتها مدرسة تجزئة القرآن واستدعائه مفرقاً.

العمل الصالح بين حجمه في القرآن، وحجمه في الاستدعاءات اليوم.

إن عقول الملايين من المسلمين تستدعي العمل الصالح في أمثلة ضيقة: كالأيتام، ومدارس تحفيظ القرآن الكريم، وربما المصحّات والمستشفيات، وكأن العمل الصالح مقصور على ما يُعرف بالعمل الخيري؛ لذلك تتوقف الأمثلة عند مستوى احتياجات العمل الخيري ومؤسساته، ولا تبسط الفكرة لاحتياجات الأمة الكبرى. وهنا تبدو الفجوة واسعة بين الصور التي يعرضها القرآن للعمل الصالح، وتلك الصور المجترأة.

إن الإحسان الذي يتحدث عنه القرآن شامل لكل الأفعال، وليس مرجواً فيه العدل فقط، الذي حده المساواة والقيام بالعمل على تمامه دون زيادة أو نقصان، بينما الإحسان: هو قدر زائد على العدل، هو أن تسير بالعمل قدماً في درجات الإتقان.

وصناعة الأمة القوية تحتاج إلى أن ترتقي بكل أعمالها إلى درجة الإحسان، الذي يُعتبر سباقاً بين البشر: ﴿يُكْمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]؛ فلكل عمل هناك ما هو أجود منه إتقاناً وإحساناً. والمؤمن أولى الناس بدخول هذا السباق، لأنه لا يريد النجاح في الدنيا فقط، بل يطمع إلى أعظم جائزة، وهي الجنة.

الإيمان مقترن بعمل الصالحات، لكن أي نوع من الصالحات يتحدث القرآن الكريم عنه؟ وهل يريد القرآن من البشر عملاً يملأ مساحات الدنيا أم عملاً عارضاً من قبيل ما يدور في أحاديثنا ومواعظنا؟ لقد ضرب الله لنا عدة أمثلة، أخبرنا فيها عن صراط الذين أنعم عليهم، حتى لا يقول قائل إنه طريق غير واضح. ولنستعرض هذه النماذج القرآنية الممثلة للصراط المستقيم، لنتبين مدى قربنا أو بعدنا عنها وعن مساحات اشتغالها.

نماذج عن الذين بيّن الله بهم مقصوده من العمل الصالح ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾:

إن نماذج الذين أنعم الله عليهم كثيرة، أغلبها تشير إلى أن طرق إعمار الأرض متعددة الجوانب، وبها وبغيرها نجد القرآن يدفع الإنسان المؤمن إلى قلب صناعة الحياة؛ لذلك لا نجده يضع نظاماً تتم بها الصناعة، والزراعة، ولا حتى السياسة والاقتصاد، فتلك متغيرات تابعة لكل عصر، ولكنه يضع أسسها القيمية، ويشير إلى نماذج اشتغال الإنسان الذي يريد إعمار الأرض والفوز في الآخرة بحيث تتكامل الصورة.

• فهذا أبو البشرية آدم ﷺ يقدم لنا نموذج الإنسان في ضعفه وتوبته .

• ونوح ﷺ يقدم نموذج الصبر على الدعوة وعلى عناد المعاندين مستخدماً النجارة .

• أما سيدنا إبراهيم الخليل ﷺ ، فيقدم لنا صورة الإيمان عن طريق التفكير في آيات الله ، والجدال بالحجة والبرهان ، والدعوة للتوحيد ، والصبر على الأذى ، إضافة إلى كونه رب الأسرة الكريم ، والإمام العامل ، وصورة النبي الصديق .

• وهذا لوط ﷺ يأمر بالإصلاح الاجتماعي الخلقي .

• ويوسف ﷺ يقود الاقتصاد ، فينقذ أهل مصر من سنين القحط بعلمه وفطنته .

• وشعيب ﷺ يدعو للإصلاح الاقتصادي ، ومنع التطفيف في الكيل والميزان .

• أما سيدنا موسى ﷺ فيقدم لنا صورة من يواجه الطغيان وينقذ المستضعفين .

• وهارون ﷺ يعين أخاه في قيادة قومه .

• ومن جهة أخرى ، نجد سيدنا داود ﷺ يصنع السابغات (الدروع العسكرية) .

• وسيدنا سليمان ﷺ يدير مملكة لم يسبق أن أسس مثلها بشر .

- وذو القرنين ﷺ يبنى السدود، والمقاولات العظيمة.
 - أما مجتمعياً فنجد ذا الكفل ﷺ يقيم العدل في قومه، ويكفله لهم.
 - وزكريا ﷺ يكفل اليتيمة مريم العذراء.
 - وسيدنا عيسى المسيح ﷺ يعالج المرضى.
 - وأخيراً وليس آخراً، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام يعمل بالرعي والتجارة، ثم يبنى أمة من عدم.
- يطوف بنا القرآن مع الذين يأمرن بالقسط من الناس، ومع النساء المؤمنات وهن ينصرن الحق، والعمال في البحار، والمزارعين، إضافة إلى الذين يدعون لموافقة أصحاب الحق، ومع من يمتلكون العلم كالذي نقل عرش ملكة سبأ.
- كل هؤلاء تحققت فيهم الشروط الثلاثة: إيمان صادق، وعبادة خالصة، وفعل في الدنيا لإعمارها، وسار الفعل من الإصلاح العقدي والأخلاقي المتلازم، إلى الإصلاح السياسي، ثم الإصلاح الاقتصادي، فالصناعات العسكرية، إلى الصناعات الثقيلة، وبناء السدود، والزراعة... لم تترك فكرة «العمل الصالح أو الصراط المستقيم» جانباً إلا تناولته.

إن انتشال العقل المسلم من ظاهرة فصل الأبعاد الثلاثة: الإيمان والصلاة والإنفاق، عن بعضها مهمة صعبة، خاصة وقد طال العهد بالإنسان المسلم وهو يتلقى الخطاب نفسه والمعارف

المجزأة نفسها، وملئت بها العقول بصور وأحداث ونماذج بشرية تختلف عن النماذج القرآنية الشاملة، وحلّت النماذج المنسحبة من الحياة من المتصوفة والعباد بديلاً عن الصناعات الثقيلة، ومصلحي الاقتصاد والسياسة والزراعة، ومن يعملون في البحر... ومن هنا بدأ الانكسار، وأصبحت هذه النماذج المنسحبة من الحياة هي النماذج الاسترشادية، مما جعل هجر الدنيا ديناً، والدعوة للإحسان فيها انحرافاً، وأصبح الفرد المسلم الذي يجمع بين عمل الدنيا والآخرة في حالة قلق دائم، وشعور مقيم بأنه مخالف لمراد الشارع، وأن خلاصه الأخرى ليس مرهوناً بالإحسان الأقصى في الدنيا، ولكنه مرهون بكثرة العبادات الصرفة. إلى هنا تبينت لنا معضلة الأمة في تقزم تصوراتها.

وقد تناولنا حتى الآن أفكاراً مهمة، رسمنا بها خارطة عامة عبر سورة الفاتحة، وجمعنا بين الآخرة والعبادة والدنيا عبر مقدمات سورة البقرة، وعرّجنا على المفاتيح الثمانية ودورها في صلاح الوعي المنتج للتقدم، وعلى نوع العمل الصالح وعلاقته بإصلاح الدنيا عبر استعراض أعمال الأنبياء والصالحين. ولننظر الآن إلى النسق القرآني للتساكن والعمران البشري كيف يعمل؟

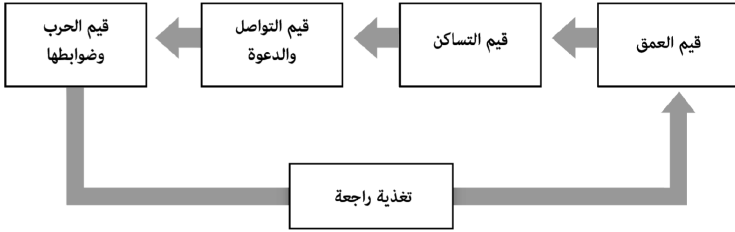
الفصل الخامس

النسق الكلي للعيش البشري

هل الدين عائق بين البشر؟

عندما ننظر إلى بلاد الإسلام سنجد في بعضها احتقانات كبرى بين الطوائف، وداخل كل طائفة على حدة، فضلاً عن الاحتقانات بين أهل الأديان. في مثل هذه البلدان تنتشر أسئلة من جنس: هل نسلم على الآخر؟ هل يجوز أن نتودد إليه ونهديه؟ هل نعايده؟ هل نشترى منه؟ هل نبيع له؟ هل نمنحه مكاناً لعبادته؟ هل... هل؟ إن حل تلك الإشكاليات لا يتم باستدعاء النصوص المجتزأة من التاريخ أو السنة، ولا حتى من القرآن، بل بفهم النسق الحاكم لكل تلك الاستدعاءات.

نسق تدفق قيم العيش المشترك:



(نموذج ٥ / قيم العيش المشترك)

لو أردنا أن ننظر إلى القيم في شكل نسقي لأمكننا تقسيمها إلى أربع مساحات: قيم العمق، قيم التساكن والعيش المشترك، قيم الدعوة والتواصل، قيم الحرب. كل هذه القيم متداخلة بشكل يجعلها تؤثر وتتأثر ببعضها البعض، إذ إن بينها علاقة جدلية - دياليكتيكية - فعلى قيم العمق تقوم قيم التساكن والعيش المشترك، وعلى قيم التساكن وقيم العمق تقوم قضية التواصل والدعوة بين البشر، فإن اختلت قيم التساكن والتواصل نشبت الحروب، وأصبح الناس باحثين عن قيم العمق لإرساء استقرار جديد، وعيش مشترك آمن، وتواصل حضاري؛ وهذا ما سنشرحه في السطور التالية:

الدول اليوم تريد مواجهة ظاهرة التطرف، وتريد وقف أولئك الشباب الذين تطلق عليهم «المغرر بهم»، الذين ينضمون إلى مسارات العنف. المشكلة أن هذه الدول لا تنتبه إلى أن وراء أولئك الشباب الكثير ممن يحملون ذات الأفكار بصيغ

مختلفة! حدثني أخ عزيز بأن له ابناً في الصف الثالث إعدادي، وكان يُدرّسه مادة علم الاجتماع، يقول: وجدت الموضوع حول عصر التنوير في الغرب، ويتحدث عن كيف تقدمت أوروبا... «فكنت سعيداً؛ ها نحن سنعطي الشباب درساً في شروط التقدم والحضارة! إلا أنني فوجئت بأن الدرس يبدأ بما أنجزه الغرب في سطور، لينتقل إلى كيفية استعمارهم للعالم الإسلامي، ويفصّل في بشاعات الاستعمار، ثم يركز على أنهم سبب تخلفنا، وأنهم المانع من تقدمنا، ولا سبيل إلى التقدم مع وجودهم... لقد كان جواب ابني مباشراً: أنا مقهور وغازب! صدق أستاذ التربية الإسلامية، لا حل إلا بالجهاد، والمسلمون يجب عليهم الجهاد. قال الأب: هنا شعرت بالأزمة الحقيقية».

لقد ملأنا الشباب حماساً وعداء لمن ظلمنا، ولم نمنحهم مخرجاً من تلك الأزمة؛ لذلك يسهل تجنيدهم بعد أن تم إعطاؤهم كل تلك المقدمات. إننا - وبشكل مستمر - نعد المشهد للكارثة، ثم نسأل ونتساءل من الذي أحدثها؟ لم نخبرهم عن تجارب تلك الأمم التي خرجت من الاستعمار إلى الاستقلال، ومنه إلى التنمية، لتصبح منافساً لمستعمرها. إننا لا نشير إلى تلك الطرق الممكنة، بل نضع الشباب أمام نفق مغلق، ثم نتساءل لماذا يتطرفون؟

إن المعلومات والمعارف لَبَنَات تفكير، والمناهج هي طرق الاستفادة من تلك اللبانات، فإن أخطأنا في اختيار اللبانات (المعلومات) أو في طرق التدقيق فيها، أو تفسيرها، ووصفها؛

فإن البناء سينهار. إن بناءنا تهدّم ويوشك أن ينهار، وما زلنا نسير في الطرق المسدودة نفسها، فلا نحن دققنا في اللبّات، ولا نحن بذلنا جهداً تقدّميّاً في المناهج، فأين المخرج؟

إن الفرق بين ما نفهمه عن الإسلام وما نمارسه في حياتنا فرق شاسع. إن الفجوة كبيرة بين فهم الإسلام داخل النسق القرآني وبين الذين يدعون لقتال كل البشرية، ويفكرون بفقّه القرون الوسطى في صناعة الدولة، ويقتلون أقرب الناس إليهم بحجة الجهاد. ومن دون ردم هذه الفجوة ستضيع معالم الإسلام، وتختفي فكرة الرحمة، خصوصاً بعد أن قرر البعض بأن كل آيات الرحمة منسوخة بآية السيف، والتي لا يُعرَف ما هي على وجه الدقة. المهم أنه لا رحمة في القرآن بحسب رأي هؤلاء، ولم يبقَ في القرآن إلا السيف، وضرب الرقاب، والبدء من العدو القريب، وهو المسلم؛ لذلك بين الدين الذي جاء به خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام - الذي يقبل من المرء الشهادتين مع ظاهر أعمال الإسلام، - وبين اشتراطات كتب العقائد قديمها وحديثها فارق واضح، إنه فارق فكرة الإيمان عن فكرة العقيدة، إذ إن وظيفة الإيمان تكمن في إدخال الناس في رحمة الله، أما وظيفة كتب العقائد فهي إخراج الناس بمختلف الحجج من دين الله. وهكذا تمزقت الأمة شيعاً، وتقاتلت وسفكت دماء بعضها البعض؛ بسبب اعتقادها بأنها تحمي الدين بذلك، فولدت ما هو أسوأ: أسواراً عالية وقنابل موقوتة بين المؤمنين، فضلاً عن غيرهم. ويبقى السؤال: ما هو

شكل البناء الذي يرسمه القرآن للمجتمع البشري؟ ولماذا أطلقنا عليه نسقاً؟

يمكن القول إن النسق هو «كلُّ» تتفاعل أجزاؤه ويدعم بعضها بعضاً، ليقوم بوظيفة معينة، وعند اختلال أي جزء منه سيؤثر في بقية الأجزاء، إذ إنه «كلٌّ» متكامل، له مدخلات وعمليات ومخرجات، وله نظام تحكُّم يسمح له بالتعديل والضبط.

إن النسق الاجتماعي في القرآن له مدخلاته التي هي احتياجات البشر، كالعدل والحرية والكرامة، وعملياته التي هي عبارة عن تفاعلات الأفكار الكبرى وترابطيتها في المجتمع المسلم، ومخرجاته التي يتولد عنها عمران الحياة واتساعها؛ أما نظام التحكم فيه فهو رضى المجتمع عن درجة تحقق احتياجاتهم من العدل والحرية والكرامة. إن أجزاء النسق ومقولاته تكمل بعضها، وهي لا تتناقض، بل تشكل كُلاً يسمى «نسقاً». والنسق أو نظام العيش المشترك بين البشر هو مرادنا من كل ما سبق.

عدم رؤية النسق أو اكتشافه تعني حدوث انفصام في الشخصية الاجتماعية بين دعاوى القيم من ناحية وممارسات الواقع من ناحية أخرى. أما القيم في سياق حديثنا فهي معايير حاكمة نحدد بها ما هو خير وما هو شر، ليس على المستوى الفردي وإن كان مهماً، لكن كيف نحدد بها وجهة المجتمع كوحدة واحدة وما يحكم سلوكه وقراراته واختياراته. وكلما تعقد تطور المجتمع ازدادت الحاجة إلى النظر النسقي.

إن النظر إلى النسق القيمي يعني فهم مشروع الدين في حياة الإنسان، وعلاقة الأجزاء ببعضها، ونسبة كل منها إلى غيرها، إضافة إلى حجم كل منها داخل النسق الذي هو الضابط لإشكال النظر الشرعي وللتصور العام للدين.

نظام العيش المشترك يتكون من أربعة أسئلة:

ما هي التصورات الحاكمة للنسق في العمق عن الإنسان والحياة؟ ما هي مبادئ العيش المشترك بين البشر التي تعكس قيم العمق في النسق؟ ما هي قواعد التواصل والدعوة بين البشر المختلفين في داخل النسق؟ وما هي ضوابط الحرب إن قامت؟ وكيف تعود المجتمعات إلى السلام؟

إن البشرية بمجموعها تتطلع لتحقيق مطالب كبرى كالحرية، والكرامة، والعدل، والعيش الكريم، فكيف يُجيب الدين عنها في كتاب الله ﷻ؟

التصورات الحاكمة في العمق:

في العمق تأتي أول القضايا الكبرى التي تستند إلى مفهوم الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح الذي تناولناه سابقاً، وفيها أن الدين جاء رحمة للعالمين؛ فما البسمة والفتحة، ولا سلام المؤمن على غيره من البشر بقوله «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» بعث! بل هي أمر مقصود؛ ﴿يَسْمِ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ لها مدلولها، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ *
الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ لها دلالتها، والسلام عليكم ورحمة الله

وبركاته تتميز بعمقها، وما وصف مهمة الرسول بأنها رحمة للعالمين بقول عابث، فعلى بساط الرحمة تتحرك بقية المعاني القرآنية، إذ إن الرحمة عطاء وليست أخذاً، وهي عطف وليست قسوة؛ لذلك تتجسد في بناء قيمي واسع.

لقد علمنا من لحظة الخلق أن الإنسان مكرم، مُنح ملكة العلم، وأُعطي حرية الاختيار، وعليه تترتب المسؤولية عن القرار، كل ذلك في الملاء الأعلى، وحرمانه من أي هذه الخصائص الوجودية هو اعتداء على كرامته وعلى الإرادة الإلهية في خلقه.

ومن ثم أُبلغ هذا الإنسان أن له إلهاً يعتني بكل الموجودات بموجب الرحمة التي هي سابعة لتشمل الخلق كلهم، والبشر كلهم كافرهم ومؤمنهم، وأُبلغ أن سبب إرسال الرسل والكتب هو قيام الناس بالقسط: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وأن مهمة الرسول تبليغ الرحمة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وإقامة القسط بينهم، وأن مهمة البشر مجتمعين هي إعمار الأرض بما يقتضيه من وقف الفساد ووقف سفك الدماء بينهم: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، إضافة إلى أن الله خلق الناس مختلفين: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ لَفِي ذَلِكَ خَلْقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨]، وحتى لا يلتبس الأمر على المسلم، أخبره القرآن أنه مهما حرص فأغلب الناس لن يكونوا مؤمنين: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وأن البشر

المختلفين في أعراقهم ولغاتهم مطلوب منهم التعارف: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، وتبادل المنافع والتعاون على قضية العدل: ﴿لَيَقُومَنَّ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقرر لهم أن من يعمل سوءاً يُجْزَ به: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

إن قوانين الله في الكون لا مبدل لها، وإن سباق البشرية يكون بأحسن العمل، وإن الكافر والمؤمن، كلاهما ينال العطاء في الدنيا ولا يبخس عمله، وإن أساس عهد المؤمن مع الله إقامة تلك الأسس واقعاً في حياة البشر، وإن الذكر والأنثى من نفس واحدة، وإنهما مجتمعين لهما مهمة اجتماعية مشتركة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لصيانة النظام، وإن مطلب الزينة والجمال مطلب رباني.

كيف سيحقق القرآن معادلتة في المجتمع المنشود؟ كيف سيتعايش المختلفون؟ كيف سينسقون حركتهم لعمران الأرض ويتوقف الفساد وسفك الدماء؟ وكيف ستؤثر هذه الأسس في قيم العيش البشري المشترك؟ وأخيراً: ما هي القيم التي تعكس الاتساق مع قيم العمق ومطالبه؟

قيم التساكن والعيش المشترك:

القرآن يطرح نتائج كل مقررات العمق بالتمييز التام بين مستوى حالة السلم وحالة الحرب، إذ إن حالة السلم هي الأساس بين البشر، بينما حالة الحرب هي الاستثناء. إن البشر

يعيشون بالتراضي والتعاقد، إضافة إلى أن عليهم احترام العقود والعهود مع الجميع على اختلاف مللهم ونحلهم، فقواعد العيش المشترك ينظمها التعاقد والعرف، وهذا واضح في العقل الإسلامي بين المؤمنين، ولكن كيف بعلاقتهم بغير المؤمنين بالإسلام؟ يقول الله ﷻ:

١ - ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١).

٢ - ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢).

إن العيش المشترك، والذي هو الأصل الذي تقوم عليه الحياة، ينبني على ذراعين ممدودتين إلى كل البشر، وهما البرّ والقسط؛ فما هو «البرّ» حتى تستبين الصورة؟ ولماذا قُدِّم على القسط؟

البر هو التواصل بالمعروف:

بر المعروف أنواع: معروف القول كطيب الكلام، وحسن المنطق، والتودد بجميل القول، وهذا يبعث عليه حسن الخلق، ورقة الطبع؛ ومعروف العمل، كالعون في النائبات بالمال واليد

(١) القرآن الكريم، «سورة الممتحنة»، الآية ٨.

(٢) المصدر نفسه، «سورة الممتحنة»، الآية ٩.

والجهد، وهو يبني المجتمعات. إن المجتمعات البشرية تحتاج إلى عنصر البر وحسن الخلق؛ إذ إن طرائق التعامل بين الإنسان وأخيه الإنسان هي ما يجعل حياة الناس أكثر فاعلية وإنسانية، فتستحق العيش. أليس الناس لا ينسون تجاربهم مع الآخرين حينما يزورون بلداً ما، خيراً كان أو شراً؟ إن البر عمل صالح: يؤثر في النفس ويقرب البعيد، فكم يؤثر الخلق الحسن في معاملات الناس، إذ شهدت العديد من المناطق عبر العالم تنورها بالدين الإسلامي وتعلقها بتعاليمه بسبب حسن الخلق والمعاملة.

إن قضية العدل والمساواة بين الخلق هي أهم ملفات السلم الاجتماعي، والقرآن يطرح البر قبل القسط ﴿أَنْ بَرُّوهُمْ وَتُقْسَطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨]، لأن حياة البشر في عمومها ليست محاكم وقضايا، بل هي تجاوز، وبيع وشراء، ومواساة في البأساء والضراء، وفي تلك المساحات الواسعة من التساكن البشري تسكن قضية البر، وتحميها عند النزاع قضية القسط.

إن البعض يطرح إسلاماً ميكانيكياً خالياً من الروح، حيث يريد بناء علاقة مع الآخرين لا تسكنها مشاعر الود ولا البر، ومبنية على العدل القانوني، الأمر الذي كان نتاجاً لصراعات بين البشر. لعلها: كانت نتيجته صراعات بين البشر لكن ما شرعه القرآن يحث على وضوح اتساق قيم التساكن مع قيم العمق بلا تناقض أو اختلاف؛ فعلى الرغم من اختلاف البشر إلا أنه يسعهم العيش تحت مبدئين أساسيين: البر والقسط، ومن ثمَّ

تتحقق كرامتهم الوجودية وعبر التعاقد والتراضي والوفاء بالعهود؛
هكذا إذاً تستقيم الحياة وتنضبط ويتم إعمار الأرض ووقف
الفساد وسفك الدماء.

قيم التواصل والدعوة:

عندما يعيش البشر مع اختلافهم في الأديان والأفكار تدور
بينهم حوارات كثيرة، إذ يرغب الغالبية في إقناع بعضهم البعض
بما يعتقدونه ويرونه. وفي أعلى درجات هذه الحوارات يأتي
حوار أهل الأديان، فما هي طبيعة هذا الحوار في القرآن؟
وكيف وجه الله رسوله لإدارته والتفاعل معه؟

ذكر الله ﷻ أربع آفات تعترى الدعاة من مختلف الأديان
والملل، وفي الوقت نفسه تهدد السلم الاجتماعي؛ يقول الله:

١ - ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾
[الغاشية: ٢١، ٢٢].

٢ - ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٍ﴾
[ق: ٤٥].

٣ - ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾
[الأنعام: ١٠٧].

٤ - ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦].

السيطرة، والتجبر، ودعوى الحفظ، والوكالة هي أمهات
المشاكل عند الدعاة، إذ إنها تصب في حرمان الإنسان من حق

حرية الاختيار، الذي هو أصل التكليف، وأصل فكرة الشواب والعقاب: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، هذه الآية تقرر أن الله أعطاهم حرية الاختيار، ولو شاء ﷻ سلبه منهم لفعل ذلك في البدء.

وعلى ذلك فالتحكم في قراراتهم وإجبارهم ليس مشروعاً ربانياً، وعلى المبلغ عن الله أن يعلم ذلك؛ لذلك يقول القرآن للرسول والدعاة من بعده: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْمُبِينِ﴾ [العنكبوت: ١٨]، وعندما يعي الدعاة من مختلف الملل والنحل هذه الحقائق سيصبح طريق الدعوة مفتوحاً والحوار البشري ممتداً، وهنا تأتي توجيهات القرآن الكبرى للدعاة المؤمنين:

١ - التنزل إلى مستوى المخاطبين من دون دعوى استعلاء: ﴿وَلِنَّا أَوْ لِيَاكُم مَّا هَدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤].

٢ - الاحتكام إلى الدليل والبرهان: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

٣ - استحضار الحكمة واتباع الموعظة الحسنة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

٤ - قاعدة قبول النتيجة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

٥ - فإن انزلق الحوار للمسابة، وجب الخروج منه للمحافظة على السلم الاجتماعي: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

تخيل لو أن الدين الذي يقرر في عمقه كرامة الإنسان وحريته، ويطالبه بقواعد التساكن بالبر والقسط، ثم جاء في مساحة الدعوة ليسمح بإكراه الإنسان وتقييده؛ يقيناً سيختل النسق، ولكنه من رب العالمين: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وهذا هو المستوى الثالث الذي يزيد الموضوع انضباطاً، فماذا عن المستوى الرابع - الحرب -؟

ضوابط الحرب وقيمتها:

ماذا لو انزلق المجتمع إلى أتون الحرب؟ وما هو موقف الإسلام من هذه المساحة؟ وما علاقتها بالمساحات الثلاث السابقة؟ وكيف عبر عنها القرآن؟

أولاً: التدافع بين البشر مطّرد، والحرب شكل من أشكال التدافع:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ثانياً: أفضل وسائل وقفها: هو الاستعداد الأقصى لحالة الحرب، مما سيؤدي إلى اقتناع الخصم بعدم المجازفة بإعلانها: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ثالثاً: الحرب مكروهة عند الله:

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

رابعاً: النفس البشرية تكره الحرب:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

خامساً: القتال للدفاع عن النفس مشروع:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

سادساً: العدوان يُصدّ بمثله:

﴿فَمَن آعَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا آعَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

سابعاً: إذا اقتنع الخصم بخطأ مسار الحرب، عاد الأمر إلى السلم:

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

وهكذا نجد أن مفاهيم الحرب في الإسلام تتناسق مع بنية العمق، وبنية التساكن البشري وبين الدعوة، ومن هنا نفهم لماذا أصرت مدرسة الحرب على فكرة النسخ الموسع وقالت بأن آية السيف المُختلف في تعيينها نسخت آيات الرحمة، فلا يمكن العبور إلى فكرة الحرب المفتوحة على العالمين إلا عبر هدم النسق القرآني.

وحيث إن النسق مكون من القيم، ولتقريب الصورة، فالقيم موجّهات سلوكية، وسأشبهها بظرف مغلق وعليه اسم القيمة، على سبيل المثال: العدل، وعقل الإنسان أشبه بالمكتبة التي فيها رفوف، وظرف قيمة العدل موضوع على أعلى هذه الرفوف

دلالة على قيمته العالية، ووظيفته توجيه السلوك الخارجي وضبط الأحكام، ولكن داخل الظرف توجد معلومات وتوجيهات محددة متعلقة بنطاق الأحكام التي تشملها القيمة في ذهن هذا الشخص، وبالتالي فنطاق استخدام القيمة موجود في قالب داخل الظرف، وسنسمي هذا القالب الذي في الظرف بالمفهوم، لأننا هنا - وبغرض البحث - سنعتبر أن المفاهيم هي قوالب مرجعية.

هذه القوالب حينما تكون غنية وكبيرة تنعكس على الخطاب والممارسة والقرار، فلو أن ثلاثة أشخاص حمل كلٌّ منهم قيمة العدل كقيمة كبرى في أعلى رفوف عقله وكان أحدهم عربياً مسلماً، والآخر غربياً، والثالث اشتراكياً؛ فس نجد محتواها عند الغربي بشكل قد يستلزم ديموقراطية النظام السياسي والمساواة الكاملة أمام القانون، وعند العربي المسلم قد تعني فقط المساواة أمام القانون، بينما عند الاشتراكي قد تظهر وكأنها الديموقراطية الشعبية وحكم طبقات الشعب العاملة. إن اشتراكهم في (القيمة الجذر) لا يعني أن مفهوم القيمة متّحد، إذ إن مفهوم القيمة يختلف عن ذاتها، وقد يصيبها تشوّه من حيث مكانتها ووجودها وعدمها، بل قد يصيب التشوّه مفهومها في الذهن.

إن المفاهيم تلعب دوراً محورياً داخل النسق؛ فهي لبنات ومكوناته الأولية التي يقيس ويشير إليها، خصوصاً عندما يعبر عن نفسه؛ فعندما يقول الخطيب: علينا بالعمل الصالح، أو بالإحسان، أو بالعبادة، أو بطلب العلم والإتقان فيه فهو يشير - في كل الأحوال - إلى قالبٍ ما في ذهنه، مكون من مصاديق

تلك الفكرة في الواقع الخارجي، ومن ثَمَّ: حينما يضرب هذه الأمثلة فهو يعبر عن سعة ذلك المفهوم أو ضيقه، فإن ضاقت مساحتها - قزمها - انخفض أداؤه تبعاً لها، وعندما ينخفض سقف القيمة ومدلولها، ستتغير ممارسة الإنسان الخارجية وعطاءاته.

النسق وحده من دون المفاهيم الكبرى غير كافٍ؛ لأنه إذا اختلت المفاهيم الكبرى ولم تعد تعني مدلولاتها المنتجة، فسيكون فعلها في الواقع مساوياً لما وُضعت له. وبإحكام فهم النسق القرآني القيمي مع مفاهيمه الكبرى ستمكن من ضبط فروع المعرفة الإسلامية جميعاً، وعلى رأسها الفقه والفتوى. فعلى سبيل المثال: عندما تتقرر قاعدة الكرامة الإنسانية الوجودية في عمق الفهم الإسلامي القيمي، وتتحول إلى مبدأ حاكم لكل ما هو إسلامي من الأقوال والأفعال، ستكون آثار هذا التقرير كبيرة، بل وضابطة منعكسة على فكرة التساكن البشري، والعيش المشترك، والفتاوى، والقوانين، والإجراءات، والأخلاق العامة، وفضاء الدعوة، وحتى حالات الحرب والسلام.

إن إصلاح أي جزء من النسق سيؤثر في البقية أيضاً، وتضخم أي جزء من النسق عن حجمه النسبي - داخل النسق - قد يوقفه عن العمل، كما أن تضاوله أو غيابه سيؤدي إلى الأثر نفسه.

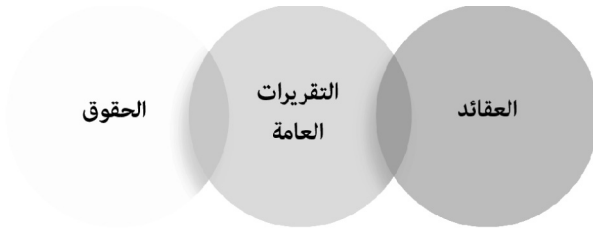
القيمة قادرة على اختراق كل الأبنية، وقادرة على تغيير كل المستويات التي تليها، وهذا ما يفعله النسق، والخلل في أي جزء من أجزائها يؤثر في بقية النسق؛ وقس على ذلك سائر القيم.

الفصل (الساوس)

نموذج الدوائر الثلاث

ميزنا فيما سبق بين حالة السلم وحالة الحرب، وهذا تمييز ضروري، لأن مقررات كل من هاتين الدائرتين الكبيرتين مختلفة؛ فحالة السلم أصل وحالة الحرب استثناء. ولكن لننظر إلى بعض الأمور المشتبكة في العقل المسلم.

نموذج الدوائر الثلاث المشتبكة:



(نموذج ٦ / الدوائر المشتبكة)

قال أحد الشباب غاضباً: أتريدوننا أن نواد من حاد الله ورسوله؟ أتريدوننا أن نوالي أهل الكتاب؟ أتريدوننا أن نلين لهم وهم يكفرون بالله؟ ألم يقل الله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ

اللَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴿ [المائدة: ٧٣] كيف نتلطف بهم وهم يكيّدون لنا؟ ألم تسمع قول الله وَجَّكَ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ﴾ [المائدة: ٨٢] ألا تعلم أن اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض؟ ما لكم كيف تحكمون؟

هذا القول ليس غريباً، ولم يعد شيئاً استثنائياً في واقعنا، بل هو فكر منتشر تغذيه آلاف المنابر والمناهج، وأصبح يجري مجرى المُسلّمات، ولا تُجدي فيه مقولات من مثل قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، ولم تعد مُجمل القصص والوصايا بأهل الذمة حاضرة في الوجدان بما يكفل ضمان حقوقهم، لأنها طُمست بالاستدعاء العشوائي للنصوص المجتزأة.

هل من سبيل لفهم آخر للنص القرآني يزيل مَوَاطن اللبس ويجعل القول متسقاً؟

القرآن الكريم نزل محمّلاً بحوار اجتماعي واسع، مع وقائع وحوادث مختلفة، فعالج تلك الحوادث في سياقاتها التي كانت ظاهرة للمخاطبين فلم تلتبس مقرراته، ولكن مع مرور الزمن غابت السياقات، وبقيت النصوص، فاقتضى استدعاؤها كمنهج يزيل اللبس، ويبقي التوازن الداخلي في الفهم. وبذلك سنقسم تقارير القرآن على سبيل النفع لا الحصر في ثلاث دوائر مهمة - لضرورة التفريق بينها في سياق حياة المؤمن - الأولى: نصوص وردت في تقارير الاعتقاد، والثانية: وردت في تقارير الحقائق العامة، وأما الثالثة: فهي نصوص وردت في تقارير

الحقوق. وعند دراستها للتفريق بين الدوائر سنتمكن من تقليل الشطط والانحراف الذي يضرب منظومة التساكن الكبرى التي أشرنا إليها في الفصل الخامس.

دائرة الاعتقاد: سنجدها تحمل بطبيعتها المفاصلة والبيان، ولكن عند جمع نصوصها بعضها إلى بعض، سنتجاوز كثيراً من المزالق، حيث إننا سنجد تقارير كبرى في هذه الدائرة، مثل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلِيسُوا إِلَّا الَّذِينَ اسْلَمُوا﴾ [آل عمران: ١٩]:

الدين في البيان القرآني بتمامه هو الإسلام لا غير؛ لكن أليس هذا هو قول أصحاب كل ملة، وتصورهم عن دينهم؟

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]:

من قال بالثلاثية، فقد ترك التوحيد، وهو بذلك كافر؛ لكن أليس من ترك معتقد أي قوم هو كافر أيضاً بمقولاتهم؟ وذلك يصدق على كل ملة.

هنا لنا أن نسأل ماذا يترتب على هذا التقرير، سواء في دائرة الاعتقاد أو في بقية الدوائر؟

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]:

• الرضى أمر خاضع للقلب، صعب المنال، فما من بشر إلا ويتمنى أن يكون الناس على ما يعتقد ويهوى.

• القبول أمر ظاهر، وهو أيضاً سلوك خارجي، فعلى

الرغم من عدم الرضى القلبي الكامل، إلا أن البشر يوظنون أنفسهم على العيش المشترك على الرغم من عدم التوافق.

كما سنجد أن القرآن يؤخر الحسم في مسائل الاعتقاد بين المختلفين إلى يوم الحساب:

﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾
[آل عمران: ٥٥].

﴿إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾
[المائدة: ٤٨].

إن الحساب على الكفر أخروي، والبيان الذي ينهي الخلاف أخروي أيضاً، والبشر يعيشون بما يظنون أنه الحق. وعلى الرغم من اختلاف معتقدات الناس، إلا أنه يسعهم العيش بمبدأ القبول. وهكذا تسير حياة البشر، فالرضى متعذر، والاختلاف سنة، ولا حل إلا عبر تسير الحياة بمبدأ القبول.

دائرة التقارير العامة: تتضح من خلال وسطيتها التي تأتي لبيان أمور للتفكير والتأمل في لحظات ضعف الطبيعة الإنسانية، ولننظر إلى أمثلتها من دون استقصاء:

عن النفس الإنسانية:

• ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ * أَن رَّاهُ اسْتَفْتَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧].

• ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

عن الصحابة:

- ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].
- ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣].
- ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

عن الرسول:

- ﴿لَا تُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [التحریم: ١].
- ﴿تَبْلَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحریم: ١].
- ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

عن أهل الكتاب:

- ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّكُمْ﴾ [المائدة: ٨٢].
- ﴿نَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١].

كل ما سبق هي أمثلة على مقررات القرآن في سياقات بعينها، ولغرض محدد أراده القرآن، لكن ماذا ستكون مترتبات ذلك على دائرة الحقوق؟ هل تعني الخصومة مع الإنسان، ومع الرسول ومع الصحابة، ومع أهل الكتاب؟ وهل ستحرمهم من حقوقهم؟ هذا ما سنكتشفه في مساحة الحقوق.

ها نحن نصل إلى مربط الفرس، حيث سنجيب عن: ماذا
ينبغي على تقارير الاعتقاد وتقارير الحقائق العامة؟ وهل
ستؤثر في دائرة الحقوق؟

من الواضح أن حق الإنسان محفوظ ومكفول على الرغم
من تقارير القرآن عن طبائعه - والواردة في الأمثلة السابقة -
فحقوق الصحابة محفوظة، على الرغم من نقد القرآن لسلوكهم
في بعض أحوالهم، وحق الرسول محفوظ على الرغم من عتاب
القرآن له، وعموم حقوق المسلمين معروفة؛ لكن ما هي حقوق
غير المسلمين في حالة السلم؟

يقول الله ﷻ: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي آلِيْنِ
وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾
[الممتحنة: ٨].

من الآية يتضح لنا تفريق واضح بين مساحة الاعتقاد
والتقارير العامة والحقوق، كما أن هناك تفريقاً جلياً بين
مساحة السلم ومساحة الحرب، فهل استقر هذا المعنى في
الأذهان؟ وهل يؤثر غيابه في تصرفات الشباب المسلم اليوم
وتصوراته؟

الخلل يأتي عندما تُستخدم آيات العقائد لضرب دائرة
الحقوق، أو حينما تنسحب دائرة المقررات العامة على مساحة
الحقوق، وكم من استنتاج بناه صاحبه على اختلاط المساحات
في ذهنه؛ فعلى سبيل المثال: موضوع الولاء والبراء الذي

تستخدمه مدرسة الحرب، هناك من فهمه على أنه إشاعة القطيعة مع غير المسلم، وبذلك ستقضي على صورة البر والقسط التي تكلم عنها القرآن.

مصطلح الولاء يدل على المحبة والنصرة، ومصطلح البراء يعني المنابذة والخذلان. السؤال هنا: هل يتناقض القرآن فيأمر بالبر والقسط في موضع، ثم يعود ليأمر بالقطيعة والكرهية؟

مراجعة الآيات التي وردت فيها ألفاظ الولاء والبراء:

الآية ٢٣ من سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، هذه الآية تتحدث عن أفراد من المسلمين ما زالوا مقيمين بين أظهر المشركين في مكة، وتدعوهم إلى مفارقتهم، أو هي تنبيه لبعض أهل يثرب الذين ما زالوا على علاقة بالمشركين - لقراة أو نسب - لكي لا يمرروا أخبار المسلمين إلى معسكر الكفر.

الآية ٤ من سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾، وسورة الممتحنة تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾... ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ الممتحنة (١)، وأيضاً الآية (٤) من السورة نفسها: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾؛ لكن ماذا يأتي بعدها في الآيات ٧ و٨: ﴿عَسَى

اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ * لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ
دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩٢﴾

هكذا انطبق النسق على الآيات وهكذا ساعد سياقها القرآني
في تفسير معناها دون عناء.

خاتمة

وفي خاتمة قولنا يمكن الإشارة إلى أن التحول الاجتماعي الإيجابي في المنطقة مشتبك مع نمط الدين المغلوط الذي ولد بسبب أفهام الناس التي تغتال الدين باستمرار؛ وذلك لثلاثة أسباب: غياب النسق، تشوه المفاهيم، وتداخل دائرة الاعتقاد في العقل بدائرة التقارير العامة على دائرة الحقوق.

ومن دون النظرة النسقية لفهمنا للدين، ستتصادم أجزاء النظام بسبب الاستدعاءات الجزئية، ومن دون استعادة المفاهيم لمعانيها القرآنية وقامتها الكلية، لن ينجح مشروع الدين في حياة البشر، وإذا استمر التداخل بين دوائر التصور الثلاث في العقل المسلم، فلا يمكن إقامة العدل والكرامة.

وكخلاصات كبرى: لا يمكن إنتاج مجتمعات سوية دون تصور عميق لنظام قيمى ضابط، الذي هو نسق متكامل أجزاؤه:

• قبول الإيمان يبدأ من سلامة الضمير، الذي هو قبول الحق إذا استبان، وسلامة المنهج بترتيب العقل وتنظيم عمله.

• فهم الدين مرهون بإدراك مركزية الرحمة، التي هي الغفور والعطاء لكل العالمين، والإنسان حر في اختياراته ومسؤول أمام الله عن إيمانه أو كفره، فلا وصاية عليه من بشر، سواء بدعوى (الحفظ أو بدعوى الوكالة)، ولا إكراه عليه عبر السيطرة أو عبر الإجبار، وعليه أن يتقبل وجود المختلف ديناً وعرقاً ولساناً، ويتعايش معه عبر البر والقسط.

• البشر مسؤولون عن إعمار الأرض عبر وقف سفك الدماء والفساد والقيام بأحسن العمل، من خلال وجود ﴿الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١].

• الدين لا تكتمل فاعليته إلا بترباط ثلاثة عناصر: إيمان (دافع)، وعبادة منتجة لغاياتها - كالذكر والبعد عن الفحشاء والمنكر والتزام التقوى الحارسة لكل عمل -، وإنفاق في الأرض لإعمارها بكل ما رزق الإنسان من عقل ومهارة وجهد ومال.

• المجتمع القوي هو وليد البر، والقسط، والتعاقد، والوفاء بالعهود، والعمل الصالح الشامل لكل أوجه الحياة.

• والنتيجة بعد ذلك فلاح الدنيا وفلاح الآخرة: «اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً».



(نموذج ٧ / النسق القرآني)